وارد بدر السالم

مولد غراب



مولد غراب

روايــــة



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفاكس : 3448368 (00202)

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

lara_alarabia@hotmail.com

وارد بدر السالم

مولد غراب

رواية



الكتاب : مولد غراب
رواية

الكاتب : وارد بـــدر السالم

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/٤٥٠٥
الترقيم الدولى : I.S.B.N.977-291-552-9

الغلاف
لوحة الغلاف للفنانة : وفاء خازندار
تصميم وجرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : سيد حرزاوي
تصحيح : زكريا منتصر
عبد الهادي عباس

قد يحدث تشابه أو تطابق بين الأسماء الواردة في الرواية مع أسماء حقيقية في الواقع.. ربما مجرد مصادفة. مع يقيني أن هذه الفضيحة قد وقعت بالفعل..

مفاتيح الكلام

ببطء أخذت أشباح الصرائف والأكواخ تفترق وتبتعد تحت غلالة فجر طباشيري. منسحبة داخل قبضة تفتح آخر منبعث من ركام ليال باردة ثقيلة. ومثلها الحقول الغاطسة في زرقة الماء المسودة والتي تناوبت في الابتعاد تحت كثافة الفجر الذي علته غيمة من الضباب الكثيف، تخلل أعمدة النخل وأحكم انتشاره على أشجار الغرب والنبق والصفصاف وقطعان النخيل، ولاح، لمن رآه، عبر ضفة الشط الثانية، كما لو أنه بقايا رماد ليلة فائتة، وبدت القرية تتفكك وتنفصل صرائفها وأكواخها وتتغير مواقع حقولها كلما جذف الرجلان بمشحوفهما الصغير تحت ظل وقت مبكر انبجس من جمرة ليلة ساخنة شدّت على القلوب وهيجت مواجع كثيرة في ذاكرة (الشيخ حسن) والرجال الموتورين الذين ملأوا المضيف إلى آخره بتراص خائف وعيون تناوب القلق في لمعانها وحلوق أيبسها البرد والكلام الكثير الذي لا طائل من ورائه دائمًا. ويدري الرجلان المبعوثان اللذان لفا وجهيهما

بغترتين بيضاوين مرقطتين بسواد أن الدرب بعيد وطويل إلى هور (العكر) وقد لا يكفي النهار بطوله للوصول إلى (السيد عنبر عبد علي السيد نور) ولكن لابد من الوصول إليه، إلى قريته المبتعدة قسرًا في مفازات الأهوار المترامية مع الماء والقصب وإلى مزاره الذي يحج إليه الناس قاطعين النهارات والليالي المظلمة ولابد أن يكون ذلك أول المساء ولابد من مضاعفة الهمة والاستحواذ على الوقت لإيصال واقع الحال إلى سيد الأهوار المتخثر في ذاكرة الناس مهما كانت الأحوال قاسية ومخزية، وفي آخر تفكك لأوصال القرية الملغومة من جهتها الجنوبية شَخَص كوخٌ ما كأنه جثة فاسدة! وبدا منفصلاً من تلقاء نفسه عن بقية أكواخ القرية، وربما واتى الرجلين شعور بأنه منفصل منذ زمان بعيد ليس لذاكرة حية أن تنتبه إليه إلا الآن، وفي اقتراب المشحوف الصغير منه، وهو يلتف مع التفاف الشط، حيث تبدأ رحلة النهار البارد، خيِّل للرجلين الملثمين أنهما يسمعان أنينًا – ربما حدث ذلك فعلاً في اللحظة ذاتها – ربما هو أنين مظلوم لقدر غامض وربما هو انعتاق سنوات بعيدة تسلقت عليها طحالب الشط وأشناته وغطت قتامتها بتناسلها الشرس. وربما هو أي شيء غامض لليالٍ كثيرة سالفة لما يزل موصولاً عبر هذا الفجر الطباشيري في كوخ القرية الجنوبي المنفصل بالمصادفة المقرونة بما يفوح الآن من صراخ مقصود، ولم

يشأ الرجلان أن يقولا شيئًا لبعضهما، لكنهما أشاحا بوجهيهما كمن يتجنبان النظر إلى فطيسة وهما يجرّان الماء بمجذافيهما بقوة، تاركين القرية وراءهما باتجاه مستعمرات القصب والبردي المنعقدة في غيوم ضبابية هابطة إلى الحد الذي تراءى لهما أن الوصول إلى قرية السيد (عنبر) يبدو ضربًا من الخيال في الجو البارد والمعتم، وما أن اقترب المشحوف من لمة قصب متعانق ودلف الجسد الخشبي كاملاً في ممر ضيق حتى انهمر صمت آخر محفوف بفجر مضبّب، حيث نأت القرية تمامًا وغرقت في صخب سري تحت وطأة حدث تسرب من بين مفارق الأصابع عنوة، خارقًا دغل سنوات قديمة، كحقيقة يتوجب قبولها، وزحف الضغط القاتم الذي يعاني منه الرجلان على نحو جعلهما ينظران إلى بعضهما بمعنى، ربما أدركا الآن، أنهما بلا فوضى، مرق هذا الشعور المتكاثر في عيونهما الطالعة من الغترتين المرقطتين بالسواد، ولم يبق إلا صوت الفجر المتكاثر. انحسر كثير من الكلام وكثير من اللغو وسينحسر ما هو أكثر من ذلك. وقد يبقى صوت (الشيخ حسن آل خيون) وحده يرن في رواق المضيف ذي الخمس عشرة شبّة؛ وفي مفاصل القرية المدانة بفعل أخرق عزّ على الجميع أن يحدث مثله بينهم وما كان على الشيخ حسن سوى أن يصيح: «قضاء وقدر!» ويبدو كمن يدافع النبال بيدين عاريتين أو يصرخ باستسلام: «ماذا أفعل؟» وكان جمر

الموقد يتلامع بين عينيه غير المستقرتين - عيني الذئب المحاصر بما هو أعتى من لمعان عينيه! ولعل هذا ما كان يجول بخاطر الرجلين اللذين اندفع بهما المشحوف إلى عراء قاتم من الضباب داخل أسطوانة من القصب والفراغ والصمت البارد إلا من شخير الماء المخنوق بالجذف المتساوق مع أيديهما المتسارعة. وربما غير ذلك أيضًا، فالألم حقيقي هذه المرة، والرحلة غامضة ووصايا العشيرة ورجالها المهمومين ضجة مشتبكة في الرؤوس وأكذوبة أمست حقيقة شاخصة ليس من أحد قادر على إنكارها والتخلص مما هو مكتوب في لوح القدر، وقد يكون الحل مستحيلاً، لكن لابد من طرق الأبواب إلى آخرها، وإلا المناوئون لحلول الشيخ حسن يتكاثرون مع لحظات (الطلق) التي لا يريد أحد تصديقها مهما كان الثمن، وهي تنتزع مهابة الجميع وتنكس الرؤوس لحظة بعد لحظة مثل لعنة، قد يركع الجميع لسطوتها، لسطوة قدر أعمي يتكرر بغموض، وإن على نحو ما، في رأس عارم الشهوة، بعيدًا عن الممكنات المعروفة في هذا التشابك وبحلوله التي ينزع إليها الأجاويد والخيّرون والسادة والفرايض وهم يتزاحمون في مثل هذا المصاب عقلاء وحكماء لا ينطقون إلا بالكلام الصحيح.

أزاح أحد الرجلين غترته عن فمه فبان جزء من شاربه الكثير:

«منذ سنوات لم أطِرّ هور العكر!».

تكاثف القصب والعنكر وامتد أمامهما بشكل غريب. وتلاقت ذوائبه ببعضهما فشكّل في ممر المشحوف سقيفة ألقت عليهما ظلاً سميكًا باردًا من العتمة والضباب وارتسمت لهما، برودة لاذعة. وبدا أن المشحوف يواجه دغلاً وانحسارًا للممر الوحيد، فاستعانا بسوق القصب وقتًا عسيرًا كاد يفقدهما صبرهما لولا أنهما يعرفان أن «الكواهين» ليست عميقة دائمًا وأن الجزرات ستواجههما دائمًا وعليهما، في المرات القادمات أن يخوضافي الماء البارد دافعين المشحوف إلى مياه أكثر عمقًا في هذا الممر أو مما يأتي غيره، باتجاه الجنوب دائمًا، ولعله لهذا السبب قال الرجل نفسه ذو الشارب الكثير:

«عهدي بهذا الدرب منذ سنوات.. إنه أكثر ضيقًا مما تخيلت!!».

رد الرجل الآخر بصوت مخنوق:

«لا... إنه الدرب نفسه..».

ثم أضاف:

«درب السيد عنبر من هنا..».

لم ينفتح الممر عن مجرى أوسع وأعمق. وظلا يسحبان حزم القصب والبردي، فيندفع المشحوف بطيئًا وكأن قاعه يحتك بالقاع المرمل.

قال الرجل ذو الشارب:

«من المفروض أن نصل إلى إيشان (أبو جنة) بعد

انتصاف النهار كما أتذكر!».

قال الرجل الذي في صدر المشحوف:

«سنصل إن شاء الله».

انفتح الممر بعد انفكاك ذوائب القصب والبردي. وانفتاح الصوابيط وصار المشحوف أكثر خفة وهو يجوس في مياه أعمق، فيما انزاح شيء من العتمة المضببة، وبدا الضباب آخذًا في الانحسار وثمة في السماء ضوء يجاهد لأن ينعتق بصعوبة، فغمر الرجلين إحساس مباغت بالدفء، فانبعث فيهما نشاط آخر وأخذا يجذفان بحماسة ثانية تاركين وراءهما أمواجًا غليظة وزبدًا كثيرًا، ثم حررا وجهيهما من الغترتين المرقطتين، وراح المشحوف ينزلق باندفاع رشيق خفيفًا إثر تخلصه من آخر فرشة دغل وانفتاح الممر كليًّا على فضاء مائي أكثر سعة، فكشف لهما سماء متسعة لكنها أقل بياضًا بسبب تقلص موجة الضباب وتشتتها واندلاق أكثر من حزمة شمس هنا وهناك ساقطة على المياه وهي تثير دفئًا ولغطًا مفاجئًا لطيور وأصوات مبهمة انعتقت مع السطوع المتفرق والاندفاعة السريعة للمشحوف المتحرر من ربقة الحصار المبكر حتي لحظة انكماش الضباب التدريجي وولادة شمس طرية أنبتت ظلالاً مقصوصة للأشياء التي تلتقطها عيون الرجلين بانفتاح أو انغلاق المسارب المائية التي تقطع الدرب الوحيد إلى هور (العكر) أو تسير بمحاذاته منبثقة من أجمات

شـديدة التـلاصق، لم تكن غـريبـة عليـهـمـا وعلى رجـال
كثيـرين، في غـزوات كثيـرة، أرهقت الدواوين والمضايف
والرؤوس بالبارود والألم والدم من أجل أي شيء. مصيبة
تتلو مـصيـبـة، آفـاق منفـتحـة على الموت والنار، يعـرفـها
الرجـلان ويدركان اللغـة المثقلة بالبنادق والهوسات وعض
الشـوارب في انبثـاق أول عصف لرصاصة طائشـة، ولعل
الوصـول إلى السـيد عنبر، كما يفكر الرجـلان، بالتناوب
أو معًـا، هو جزء من الرغبات المستحيلة التي عـصفت
بالقـرية وحولتـها إلى كتلة ملتهبة من الظنون والشكوك
والفــوضي، وقــد تكون الأســوأ من المصــائب تلك التي
قـادتـهـا إلى عنبـر سـيـد الأهوار.. من يصـدق هذا؟ من
يصـدق أن مـا حـصل جلب إلينا الذباب والـذئاب؟ قل أي
شيء يريح أعـصابنا التالفـة؟ قل أي شيء يا شيخ حسن!
قضـاء وقدر يا رجـال!.. قل للناس إنهـا فضيـحـة العشيرة
والقــرية.. هذه بلوى يا ناس ابتـلانا بهـا الله.. قـضـاء
وقـدر!.. قل كل شيء بوضـوح. وللنسـاء المعـتكفـات على
خـزي مـا بعـده خـزي. قل لهن: الدنيـا صـارت هـكذا.
الرجـال تحبـل بدلاً من النسـوان!! يا رجـال لا تضـخـمـوا
المشكلة! هذه إرادة الله عـز وجل. ومن يعتـرض فهو كافـر
وليخـرج من بيننا ملعونًا في الدنيا والآخرة./ على مهلك
يا شيخ حسن،/ لا رادّ لإرادة الله سبحانه وتعالى./ لكنّ
سـبـحـانه وتعـالى جـعل في رؤوسنا العـقـول وميّـزنا عن
البـهـائم./ هـذا قـضـاؤه وهـذا قـدره/ أنعم بالله يا شـيخ

حسن فهو على كل شيء قدير. لكن هذه فعلة شيطان رجيم!

لا يريد الرجلان أن يستفزا حواسهما لإعادة التقاط أي شيء من شأنه إيذاء النفوس وتكدير الخواطر المحتدمة، فما كان قد كان. وليس بوسع الشيخ حسن آل خيون أن يوقف تدفق الألم في الصدور وتسوية الفضيحة بالقتل أو الحيلة أو الحرق أو الجلاء. اخترقته النبال في ليلة فريدة، فصدّها بشجاعة، لكن الرماة أصروا على القتال في أطول ليلة تعيشها قرية آل خيون، فكانت زمنًا ثقيلاً قاسيًا أعاد إليه سنوات منسية ونزقًا قديمًا دفنه في طيات روحه وأماته بشكل نهائي.. ولم يُبْقِ شاهدًا واحدًا غير النهر الجاري والسماء العميقة.. هل كان ذلك حقًّا؟

انتشرت الشمس وفكّ شعاعها عُقد الضباب وحلّ الرجلان أزر الصوف الخشنة عن جسديهما، فيما ظل المشحوف ينساب في ممر منحن ليس محاطًا بالبردي تمامًا، كما أنه ليس فسيحًا تمامًا، وترك هذا الشعور فيهما من أن الوقت يتساوق مع الدفء ومنتصف الدرب الذي أبعدهما عن القرية باتجاه قرية السيد عنبر في هور (العكر). وربما ستهون أشياء كثيرة في بركات السيد القصي الذي تقصده القرى المفجوعة والعشائر المتقاتلة والرجال المطاردون فسيجدون عنده أمنًا حقيقيًا وسلامًا متمنى، وثمة من يجد لديه أملاً بشفاء مستحيل

من أمراض قاتلة أو ممن ركب الجن رؤوسهم وأحالهم إلى كائنات أخرى، ترى ماذا سيقول عنا السيد؟ سيقلبها الله بكم يا آل خيون!/ مولانا وسيدنا إنها بلوى قصدناك بأمل أن تستر فضيحتنا. ويدرك الرجلان أن وصولهما إلى القرية المترامية في البعد سيجعل فيهما ثقة أكيدة لتخطي نصف المشكلة، فهذا الولي هو أكبر من «فريضة» وأقل من ملاك. هل أنت ملاك يا سيدنا؟/ أستغفر الله أنا إنسان كما أنتم./ لكن العيون العمياء تبصرك يا مولانا؟/ أستغفر الله وأتوب إليه إن الله هو العليم البصير وهو القادر على كل شيء/ مولانا سيموت رجل البيت ولديه من الأطفال سبعة، لقد دنت ساعته/.. شفاه الله وعافاه. ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.. ولكن رحمة الله واسعة/ الله عز وجل هو الذي يغير الآجال ويزيد من الأرزاق، قم يا رجل بإذن الله إلى أطفالك وبيتك،/ يا سيد عنبر رأتك القرية في حلم أخضر بلون القصب، وها نحن نقصدك في زمان القحط والجوع، إننا نموت يا سيدنا/ لله حكمة في كل شيء، تمسكوا بالصبر والصلاة وأعينوا بعضكم على بعض. اقتسموا الرغيف الواحد. واشربوا من طاسة واحدة./ يا ولي الله الصالح هذا ولدي بين يديك ما قال كلامًا منذ ولدته/ انطق بإذن الله يا ولد واذهب مع أمك وكن ولدًا عاقلاً/ يا سيد الأهوار ومحجة القرى ومزار أحلامنا، يا ولينا البعيد القريب، يا ولينا وأخانا وشفيعنا

إننا نقطع الليالي والنهارات من أجل أن نراك ونتبرك بطلعتك فأنت ولينا إلى السماء. ومبعث النور في رؤوسنا.

وفي رأس الرجلين تمر صور الكرامات للسيد عنبر وتتوقف كشيء باهر وتنمو مثل أمل بهيج وتتفتح كسلام حقيقي قادم على أجنحة القصب وتتفاقم أمام طريقهما مآثر الرجل وملكته العجيبة في حلوله الساحرة لمشاكل مستعصية شخبت بسببها الدماء وسقطت بها الرؤوس الكثيرة، فيشعران بالتآلف مع مشوارهما الذي يقترب على ظهر نهار بارد، وينغمران بأمل مزهر وهما يثقان برؤيا السيد وبصيرته التي وهبها الله له فصار مزارًا مقصودًا من الأقاصي المعزولة حتى الصحراء المنسفحة بحدود الأهوار. وبرغم ظهور سادة وأولياء صغار وأصحاب كرامات، لكن السيد عنبر ظل المرجع الحاسم لقرى الأهوار البعيدة وسيد المسافات مهما بعدت وتباعدت في الدروب المائية الوعرة؛ ولا يزال هذا الشعور يكبر في دواخل الرجلين كلما انطوت المسافات وتصرمت الساعات منسوجًا بكل ما هو خارق وأحيانًا فوق قدرتهما على التصور مما هو حاصل أو سيحصل، لكن هذا الشعور قد يتبدد على نحو مفاجئ لسبب مجهول، ربما بسبب الإرهاق، أو البرد، أو اليأس، أو طول المسافة، لكنهما يقران أن لا شيء يقبل التأجيل كما لا يحتمل اليأس المطلق ولا يحتمل الأمل الكامل، فكل ما

كتبه الله على العباد الضعفاء يصير وتراه العيون وتلمسه الأيدي، ولعل هذا كان دفاع الشيخ حسن آل خيون في آخر محاولة لدرء الخطر القادم أمام رجاله الذين امتلأ المضيف بهم، وما كان أحد يعترض على هذه الإرادة غير المرئية، لكن، مع هذا، قاتلوا إلى آخر لحظة ممكنة.

- «يا رجال.. اتقوا الله.. هذا قضاء وقدر.. لا تكفروا بمقدرة الله.. فليخرج ملعونًا من يشك بهذه المقدرة».

كانت عينا الشيخ حسن آل خيون تحمران ويكتسب وجهه صرامة غير معهودة. وهي صرامة لا يشعرها الجميع، وكان قلبه ينبض بالكراهية لأشياء قديمة بزغت هذه الليلة في جمر الموقد، ثم، كما خيل له، تناقلتها العيون الملتهبة فينبري إليه وعلى نحو مباغت صوت ليشبك في رأسه المصدوع صورًا مختلطة:

- «لا راد لإرادة الله تعالى يا شيخ حسن.. ولكننا لسنا بهائم!!».

فيدوس الشيخ حسن على جمر شديد التوهج وهو يصيح:

«انظروا ماذا فعلتم؟؟».

تسارعت في رأس رجل آخر صور أخرى لسنوات قديمة، وجد أنها حدثت قبل وقت قريب، كما لو حدثت يوم أمس، على ضفة النهر الجاري فقال باستخفاف:

- «سامحك الله يا شيخ حسن.. كلك عقل وحكمة!!».

وقبل أن ينطق الشيخ، قال الرجل نفسه:

«اليد تحصد ما تزرع!!».

وكانت عيناه تقولان للشيخ حسن شيئًا حاسمًا، فيما بدأ الآخر وكأنما بوغت حقًا بهذه الوقاحة من رجل يعرفه تمامًا، وقد بدا التوتر مخيمًا على المضيف والرجال، حتى تدارك الأمر رجل آخر قائلاً:

- «يا آل خيون.. كفوا عن هذا الكلام.. لقد صرنا كلام الرايح والجاي».

فتسارع صوت آخر وصاح بثقة متناهية:

- «لا نحصد ما زرعه الشيخ حسن.. البلية بسببه..».

واصطدمت الأصوات ببعضها، منعتقة من الصمت الطويل وحاصرت الشيخ حسن بقوة، واستنطقته بأعنف ما يكون الاستنطاق، لكن الرجل تدرع بمشيئة الله الجبارة، وعدّ الذي حصل درسًا قدريًا على الجميع فهمه والاستدلال بمدلولاته الأخلاقية، لكنه كان منكسرًا، اخترقته الأصوات التي أسكتها ثلاثين عامًا، فارتضى ألا يضع على خطوات الآخرين قيودًا ما، وأحس أن ثلاثين سنة ماضية تداهمه الآن وتفرض عليه سننًا جديدة. لا مفر من الاعتراف بأن كل شيء أصبح مخترقًا بعناد، وأن الصمت الطويل لابد أن ينفجر، ربما تناقلته عبر المواقد والظلام وربما النهارات البرية، جيلاً بعد جيل، ولكن كيف تسنّى للآخرين أن يرغموه على قبول ما هو غامض أو مطوي من صفحاته السرية/ هل الشجاعة أن يمتلك المرء أسرارًا كثيرة؟ عندما سلك الحيلة طريقًا

للتمويه فوجئ بأن في القرية حشدًا من الرؤوس المحتالة، كما لو تقطع عليه طريق البراءة والنجاة، ومع تقادم الساعات الساخنة كان كل شيء يميل إلى التفكك والارتخاء، وما كان أمامه سوى أن يفرش عباءته وهو يقول بصوت هدّة التعب الحقيقي:

- «يا آل خيون. أنا أعرفكم.. زنتم لا تحلون المشكلة إلا بمشكلة فإذا لم تؤمنوا بقضاء الله وقدره، أعطونا وقتًا كي يهدينا الله إلى ما نصل إليه من حل..».

قال أحد الرجال باعتداد:

- «المشكلة محلولة يا شيخ حسن، نبعث بمن يأتي إلينا بالسيد (عنبر) فهو ولينا وسيدنا. ونحتكم إليه..».

ردد الشيخ حسن بحياد:

- «ما في الأمر احتكام يا رجل.. فلماذا تفضحوننا عند أولياء الله؟!».

ومن قعر المضيف قال أحد الرجال:

- «أولياء الله سيعرفون حقيقة الخطيئة..».

انتظمت أنفاسه قليلاً. ثم قال:

- «لنتركه بضعة أيام لنرى حقيقة الأمر، فإن كان مرضًا سقيمًا نفخ بطنه فنداويه والله الشافي وهو المعين».

صاح أحد الرجال:

- «إنه يموت يا شيخ.. هذا حرام! إنه نَفّس حتى لو كان في داخله شيطان».

وصاح آخر محتدًا:

- «كشفتْ عليه النساء يا شيخ!!».

نطق من نطق في لجة الاضطراب الذي امتد ليلاً بارداً بطوله إلا أن الرأي الذي كاد يؤدي بفتق الجراح إلى آخرها كان لرجل قصير وجد نفسه يستوعب الفضيحة منذ بداية الليل حتى آخره حينما قال:

- «لنستغفر الله كثيرًا يا رجال العشيرة، لنستغفر الله من هذا الزمن النجس الذي باوعنا فيه على العجب، نقف على هذا النجس الذي خلانا ندافع فيه عن بطون الرجال الفاسدة، وما حصل قد حصل، وقد يحصل ثانية في أي بطن من بطوننا، وقدر الله لا يفرق بين مخبل وبين شيخ فكلنا خاضعون لمشيئته سبحانه وتعالى...».

وعندما سكت، كان واضحًا للشيخ وبقية الرجال أن الرجل القصير بذل جهدًا صادقًا وهو يتحدث، حتى وهو يستطرد قائلاً:

- «هناك ظالم وهناك مظلوم بيننا، فإذا ما عرفنا المظلوم فيجب أن نعرف الظالم».

تمكن هذا الرجل القصير من أن يحكم الصمت بين الرجال بشكل جعل الشيخ حسن آل خيون أكثر انتباهًا وأكثر توترًا أيضًا..

قال الرجل مواصلاً حديثه وهو لا يصدق أنه تمكن من إيقاف الفوضى والشكوك:

- «المظلوم موجود بيننا أو قريب منا، والظالم واحد

منا، ونحن نحتاج إلى رضا الله سبحانه وتعالى عنا أولاً وأخيرًا».

لا يزال الرجل يتكلم بينما تتوهج العيون برؤى مستفيضة وتعترف القلوب باقترافها الآثام تلو الآثام، ربما هي لحظات مشدودة، لكنها كانت كافية لأن تنير شعابًا مظلمة في الدواخل المقموعة، وقد كان القصير يدرك شيئًا من هذا وهو في تدفقه اللاهث:

- «علينا بالوالي الصالح» عنبر فهو المعين بعد الله جل شأنه، وربما ننال شيئًا من بركاته، وأنا أرى أن يقصده رجلان منا ويطلبا منه الحل والمشورة وإلا سنبقى نأكل أنفسنا وتصير فتنة بيننا سيتبرأ منها حتى الله سبحانه وتعالى!!!».

وبدل أن تكون فتنة، اهتزت الرؤوس موافقة وترادفت الأصوات مستحسنة فكرة الرجل القصير الذي التقت عيناه الآن بعيني الشيخ حسن، وهو يشعر أنه قال كلامًا حقيقيًا يعتور في صدور الكثيرين، وما كان الشيخ بالنسبة إليه في خاتمة الأمر سوى رجل من هؤلاء الرجال أرغمه على الإنصات وفرض عليه ما كان يخافه، وفي الفجر الطباشيري كانت السماء مختفية خلف سحابة ضباب ثقيلة، وكان الرجلان المبعوثان إلى السيد مثقلين بالسهر والتعب والنُّعاس...

مفاتيح السؤال

فاجأهما ضوء شديد السطوع ينعكس من مرايا متوهجة تزداد صفاء وألقًا في كل لحظة قدسية منبهرة بالصمت الخالص وروائح البخور الطاغية، كما لو ولد نهار جديد أكثر نضارة من النهارات كلها، انبثق من جناح المساء الهاطل بكثافة وتشظى زاهيًا عبر العناقيد المدلاة بانتظام، وقد بدا في مزار السيد عنبر كل شيء مرتبًا وبسيطًا وفاخرًا بقناديل ولوكسات وفوانيس معلقة بتراتب يمنح الرائي لها، بعد أن تعشو عيناه قليلاً، ثم ينتظم السطوع الفاقع لونًا منسابًا كشجرة موزعة الأوراق والأغصان، يمنحه إحساسًا بالطمأنينة والخفة وهو ينظر إلى نجوم فرت من السماء واجتازت ليلاً ساحقًا لتخترق سقف المزار وخصاصه القصبية وتتعلق كأقمار منية ترفرف فوق رأس السيد وتسبغ عليه مهابة حقيقية وتمنح وجهه ألقًا مضافًا شد الرجلين إليه وأكسبهما شعورًا نفاذًا بالألفة والسلام والغبطة، فنسيا تعب النهار البارد الطويل وهما ينغمران بحميمية في فيوضة الجو الفاره وروائح البخور والنعناع

والدغل الرطب، وربما كان عليهما أن يهدأ كثيرًا وينزعا من رأسيهما فكرة الحدث المتوتر ويتعاملا معه في هذه الواحة المضاءة؛ كحقيقة حصلت برغم الجميع، وكما لو أن أحاسيسهما الأولى امتزجت في هذا السطوع المتورد، فانبعثت فيهما بهجة سريعة كانا قد افتقدها، كما الآخرون في القرية تحت ضغط الولادة القادمة لرجل ما، كان ينبئ وجوده عن مثل هذا الاحتمال الأكثر رعبًا. وهو الضغط الكامن في أعماقهما منذ رحلة الفجر الطباشيري، منذ التفتت الأول لسحابة الضباب وهو التفتت الذي أخذ يحدث تدريجيًا كلما ازداد نصوع المزار بدخول سرب من فراشات ملونة أخذ يحط على كتفي السيد أو يتبعثر على لحيته الصغيرة، ثم يطير السرب بعد لحظات تحت إنارة باهرة منقادًا إلى هاجس النهار الاستثنائي إلى آفاق كثيرة الظلام، لكي تدخل حفنة فراشات زئبقية وتتوزع على وجه السيد وكتفيه وتدور بعدها كأنها قطع ضوء ملونة، وكانت عيون الرجلين تنتقل بين الأسراب الشفافة المضاءة غير مصدقين أن هذا يجري أمامهما، فيما بدا السيد عنبر أكثر سعادة وحضورًا وقدسية كما لو أنه غير موجود في هذه اللحظة المكتظة بالأمان العارم! وأخذ الرجلان يستريحان تمامًا في جو أشاع فيهما دفئًا وحقيقة ما، وعيونهما تتخاطف على كل شيء: السجادات المبرقشة التي تقبع في زواياها طواويس براقة متناظرة وكتابات قرآنية وأزاهير وأقواس متتابعة

تتصاغر دائمًا حتى تتلاشى في الحافات أو تصعد على
خصائص المزار في بعض من المواقع، حيث يشتد ضوء
خارج الأضواء ليكشف صورة صريحة لرجل ذي وجه
وضَّاح يفيض البشْر من طلعته، وتكاد عيناه تنطقان. وكلما
أمعنا النظر فيه بدا وكأنه سيقول لهما شيئًا ما، وأن
الأسد المتكين أمامه بوداعة لا متناهية، والذي يشاطره
الثقة والاعتداد، سينهض من الهالة الخضراء التي أسبغت
على الصورة كلها مشهدًا مبجلاً شديد التأثير، وثمة حول
الصورة وفي الاتجاهات المختلفة تدلت رايات خضر وبيض
وسود صغيرة الحجم دائمًا، ربطت منفردة دائمًا، كما كان
من السهل عليهما أن يلمحا خرقًا ملطخة بالحناء اليابسة
محاطة بآيات من القرآن كتبت بماء الذهب وبمداد
الأولياء الصالحين على مر الزمان، وعلى ورق متفطر
بسبب القِدم، وباستدارة عيونهما. وهي لما تزل في لحظات
الإبهار المقدس، تتكشف أفرشة محلاة بخيوط الزنابق،
وتتكاثر أعشاب ممدودة من خارج المزار متطاولة تتسلق
أضلاع القصب المتماسك، وقد تمتد إلى أكثر من ذلك.
وتلتف حول الأفرشة المحمولة على صناديق مسواة بعناية
كأنها تتبرعم من وجوه المخدات المستطيلة والأسطوانية،
ولايزال الرجلان في أقصى ذهولهما وسلامهما أيضًا.
وظلا مستسلمين للسطوع وهو يزيد من تفتيت الضغط
الذي يعانيان منه، حتى شعرا بأنهما أخف من أن يكونا
رسولين يحملان رسالة طائشة من شيخ ارتبطت به

فضيحة دون أن يعرف أحد مقدار ذلك الارتباط، ومثقلين بالوصايا والنذور، وهما ينغمران في هذا الجو الملائكي المتجانس في الأمل والسرور والأفراح المكتنزة والضوء المتسرب فيهما. عاد سرب جديد من الفراشات يحوم في الجو المشتعل بالضوء، وخامرهما يقين، في لحظة خاطفة، أنهما سمعا أصواتًا برنين ضوئي تتعاقب بين الفراغات الصغيرة التي تتركها الفراشات في طيرانها! هل حصل ذلك حقًا؟ ثم وجدا نفسيهما ينتبهان إلى دخول السيد عنبر نفسه! كانا قد رأياه قبل قليل حين كانت الفراشات تطير وتحط على لحيته الصغيرة، هل رأياه بالفعل؟ لم يلحظا أول الأمر ما يشير إلى ذلك، لكن دفقة ضوء انهمرت من السقف باتجاه الباب الخشبي ذي المسامير الغليظة وهو ينفتح عاكسًا الوجه المتفتح والمبتسم في طلعة فتية مبهرة وقامة طويلة بدت تلامس حافات الضوء المعلق، عندها لاحظ الرجلان أن السيد يضع على رأسه غترة خضراء مسفوفة من خيوط البريسم والفضة، وكانت الأنوار تزيد من توهجها وتكسبها لمعانًا فذًّا تنعكس فيه ألوان أكثر بريقًا وكأنما عمامته الخضراء الصغيرة قنديل براق تزيده إشعاعًا ينعكس على حضوره البهي الذي أربك الرجلين على هذا النحو المفاجئ، لكن ابتسامته المتفتحة بعثت الاطمئنان أمامهما وطوت مسافة شاسعة من الألم والحيرة والمجهول. وعندما قبلا يده الصغيرة التي تشبه يد ملاك كانا قد أذعنا لمجيء سلام حقيقي وزمن جديد،

وفي لحظة التقابل التي حفرت فيهما خضوعًا واستسلامًا عاليين، كان السيد ينقل أصابعه الرقيقة بلحيته الخفيفة وشاربه المحفور بعناية، وربما لم يشاهدا ذلك مليًا، غير أنهما تعلقا بعينين متفتحتين كصدفتين، ينبثّ منهما سواد غريب، ولم يكن أمامهما غير أن ينعما بالمثول المقدس بعد رحلة طويلة، ويتخلصا من هواجس مريرة أكلت في أعماقهما كما أكلت في أعماق الشيخ ورجال القرية. وفي لحظة المكوث الذي يسبق الاعتراف عاد كل شيء إلى هدوئه، ثم تناوبت أسراب الفراشات بالطيران والتعاقب في التبعثر على لحية السيد وعلى كتفيه وطارت باتجاه منابع الأضواء بين الفوانيس واللوكسات كأنما ابتلعها فيض النور الحالم، وظل الرجلان ينظران إلى السيد الفتي بإعجاب لا حد له، وهما منغمران في وطأة لحظات متماسكة من الصفاء، وانقشع من رأسيهما طنين الكلام الثقيل، ليغطسا في حلم أخضر مترامي الأطراف كأنه جنّة غامضة، ولعل هذا الفرح المتعاظم وحده كان كافيًا لأن يزفرا ما في صدريهما مرة واحدة، وكان وجه السيد عنبر يبث فيهما آمالاً بوسع النهار الذي قطعاه في المسارب المائية، وبحجم السنوات التي عاشاها معًا، وربما وجدا الآن أنهما يستطيعان بحرية متناهية أن يقولا للسيد كل شيء عن حالة غريبة حصلت في قريتهما، سيقولان كل شيء بوضوح، غير أن سربًا آخر من الفراشات انبثق من قمة الضوء وتهادى يرفرف منتشرًا ويتعاقب بين رفيفه،

كما خيل للرجلين، رنين ضوئي هامس، وهو ما جعلهما يتريثان مسحورين لهذه الألفة الحميمة وينظران إلى أسارير السيد وهو يشير إلى أحد رجاله الواقفين وقد خلع غترته المسقوفة، فبان شعره مصفوفًا كأنما لم يعتمر شيئًا، انعكس على ذؤاباته نثار من هالة الضوء الساطع فتخيل الرجلان أن رأس السيد يبرق مثل قارورة مُنارة. أخذ الرجل الواقف الغترة وناوله أخرى زرقاء مفصصة بفصوص بيض وسوّاها على رأسه؛ ثم وضع عقالاً أسود رفيعًا وتمهل في تسويته، ولاحظ الرجلان أن السيد بدا أكثر طفولة واكتسب وجهه معنى ثانيًا تنور بنور سري جذاب انبثّ للحظته أمامهما وهما يفاجأان بتحولاته الجميلة فابتسما، دون أن يقصدا ذلك، كما لو أن حلمهما البهيج قد انفلق عن حلم آخر أكثر نضارة وشبابًا وأملاً، وتسربت إليهما ورائحة خضراء عندما حوّم سرب الفراشات وتناثر بين الأضواء، وعندما اعتدل السيد وهو يتربع على مخدتين معًا تهيأ الرجلان لقول أي شيء، وبلا إرادة سعل أحدهما سعلة خفيفة، إلا أنه وجد نفسه غير قادر على أن يقول شيئًا، فبادر السيد بصوت رخيم، وهو يستشعر اختلاج الكلام في دواخل الرجلين:

- «يا أهلاً وسهلاً.. يا أهلاً وسهلاً.. كيف حال الشيخ حسن؟».

بهت الرجلان معًا وفوجئا أن السيد يعرف شيخهم، وواتاهما شعور ما من أن السيد قد يعرف الغرض الذي

جـاءا من أجله.. قـال الرجل ذو الشـارب الكثيـر بصـوت تسلل إليه الارتعاش:

- «بخيـر.. بخيـر والحمـــد لله.. الشـــيخ حســـن يبلغك الســـلام يا مولانا..».

فعاد الصوت الرخيم:

- «الله يسلمكم من كل مكروه.. بارك الله بكم.. لا سلام إلا مع الإيمان بالله وقدرته..».

تشجع الرجل الثاني وقال لفوره متسائلاً:

- «أتعرفه يا سيد!!».

هـز السـيـد رأسـه عـددًا من المرات وهو ينظـر إلى نار الموقـد مـطيـلاً النظـر فيهـا، فـانتبـه الرجـلان إلى الموقد المجمر لأول مرة، ثم إلى وجه السيد الذي اكتسب مسحة غـامضـة، إلا أن الابتسامـة الثرية ظلت مؤتلقـة فيـه فظل فـيض الاطمئنان مـعـتـمـرًا في صـدري الرجلين، ثم قـال الرجل ذو الشارب:

- «مـولانا الكـريم.. نحن مـن عـشـيـرة (آل خـيـون) وشيخنا حسن آل خيون الذي وجدنا أنك تعرفه!».

- «يا أهلاً بكم آل خيون.. مـن دخل مزاري قـد حلت عليه صراحتي..».

صمت الرجلان مضطربين فعاد السيد يتساءل:

- «إيه.. مـا هـي أخـبـاركم؟ كـيـف هو حـال القـرية؟ الشيخ؟ الرجال؟».

تبـادل الرجـلان نظـرات سـريعـة لا تـخلو من لوعـة، ثم

قال الرجل ذو الشارب الكثير بجدية:

- «الحمد الله ونشكره على كل حال...! الحمد والشكر له أولاً وأخيرًا...!».

صمت الرجل لحظة، وسحب طرفي عباءته على كتفيه وبدا حائرًا:

- «لا أدري من أين أبدأ يا سيد.. لكن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالستر عند الابتلاء...».

سكت الرجل فجأة ووجهه محتقن كأنما سيشرع في البكاء؛ فتسارع السيد ليقول بثقة:

- «الله تعالى هو الذي يدفع البلاء عنكم وعنا..».

فقال الرجلان معًا، وهما ينعتقان من أسر الحيرة المفاجئة:

- «آمنا بالله العلي القدير».

سحب الرجل ذو الشارب الكثير جسده إلى خصائص المزار كأنما ليفسح مجالاً للرجل الآخر الذي عدّل من وضع غترته وقال:

- «يا مولانا الصالح.. اللعنة التي أصابتنا ما كان مثلها في عشائر المعدان. وهي لعنة غريبة أشعرتنا بالخزي والعار، حتى أخذ رجالنا يهربون أيامًا وليالي خوفًا من الفتنة...».

صمت لحظة وهو يسوي عقاله المائل، فيما كان السيد عنبر يصغي وفي عينيه المكحولتين ينعكس لألاء الضوء المبثوث في كل مكان:

- «وجدنا أنفسنا في حكاية قيلت مثل المزحة أولاً، ثم صارت حقيقة، فدوّخت رؤوسنا أيامًا وليالي، ولا يزال رجالنا حائرين أمام الأقدار هذه يتخبطون مثل السمك المزوهر..».

أحس الرجل أنه يبذل جهدًا جبارًا ليقف على رأس الحكاية بعينها:

- «جئناك يا سيد وفينا أمل أن تمنحنا من بركاتك وتفك عن رقابنا قيد العار، فالشيخ لا يرضى بالحلول. والأجاويد تعبوا، الرجال لا يعرفون كيف يتصرفون.. ولم يبق لنا أولا وأخيرًا إلا الله سبحانه وتعالى وأنت يا ولينا الكريم.. أكرمنا يا سيد فالفتنة ستحصد منا رجالاً ورجالا..».

تعب الرجل ذو الشارب الكثير، وكان الآخر مهيأ لأن يستطرد:

- «بعثونا إليك يا مولانا فأنت الشفيع الوحيد بيننا لتكون الحكم والحاكم.. أشرْ علينا بمشورتك، وتفضل إلينا لتر بعينيك حيرتنا ومصيبتنا، فأنت ولينا وسيدنا فعسى الله أن يتوب علينا..».

كان السيد صامتًا وهو ينظر إلى الرجلين المرتبكين، إلا أنه قال متمتمًا:

- «نستغفر الله ونتوب إليه ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عليه أفضل الصلاة والسلام الله..».

همس الرجلان بما تمتم به السيد وهما واقعان تحت تأثير حالة يفترعها الخضوع والرهبة والإيمان، لكنهما ازدادا تصميمًا على مصارحة السيد بشكل بدا كأنهما سيتكلمان بذات الوقت، غير أن الرجل ذو الشارب قال لفوره:

- «عفوك يا مولانا، اعذرنا، فإننا لا نعرف كيف بدأت اللعنة، إلا أننا منذ أيام قليلة فقط عرفنا، أنت تعرف يا سيد أن بين الصدق والكذب مسافة، من هنا، إلى هناك،.. من يقدر أن يصدق أن رجلاً في الثلاثين من عمره يحبل كما تحبل النساء!!!!».

ارتعش شاربه وتكاثف وهو ينظر إلى عيني السيد وهما تتفتحان على سعتهما، فيزداد فيهما الوميض وتتخاطف في عمقهما الصافي شذرات الأضواء المتعاقبة، ولاحظ الرجلان ما يشبه العبوس خيّم على وجه السيد، وكما لو أن الابتسامة التي كانت تملأ وجهه قد انسحبت وحلت محلها تغضنات مفاجئة فترك هذا فيهما إحساسًا بالاضطراب وهما ينظران إلى التبدلات المعلنة والسرية في الوجه الصافن إلى الموقد الذي حفر في الوجوه جميعها بقعًا مبرقشة ببصمات نار غير مستقرة.

- «يا سيدنا الكريم، القضية تشبه الكذبة الثقيلة! لكن هذا ما حصل.. رجل حبل في قريتنا!! لظروف ما قدرنا على تفسيرها!».

تحرك السيد قليلاً يعدل من جلسته على المخدتين

فتحرك أكثر من نبع ضوء وتحرك الرجلان بشكل لا إرادي، ثم سارع الرجل نفسه ليقول:

- « .. كشفت عليه مولدة القرية زهرة وهي خبيرة بأمور الحمل والولادة!».

نطق السيد بالصوت ذاته الذي لم يتبدل؛ متسائلاً:

- «وماذا فعل الراعي؟ هل ترك المرعي؟».

أجاب الرجل نفسه بحماسة؛ دون أن يفقه ما قاله السيد:

- «كل ليلة يجمع الشيخ حسن رجال القرية وأجاويدها وسادتها وخيّريها والعارفات بالسحر وقارئات البخت، لكن أحدًا لم يقدر أن يفسر لعنة الرجل الحامل!!! كان يقول دائمًا إنها قضاء من الله!».

وتساءل السيد:

- «وماذا يقول رعية آل خيون؟!».

قال الرجل ذو الشارب:

- «إنهم منقسمون يا مولانا .. بعضهم يصدق أنه قضاء وقدر، والبعض يري في الأمر سرًا دوّخ الرؤوس، وبعض من كبار السن يلقون اللوم سرّا على الشيخ حسن دون أن نعرف ما دخل الشيخ حسن بقضاء الله وقدره!..».

ثم سحب السيد عينيه من حفرة الموقد ونظر إلى الرجلين:

- «وماذا قالت قارئات البخت؟؟».

قال الرجل الآخر:

- «جنيّة.. جنيّة نفخت بطنه!».

ثم أردف الرجل ذو الشارب الكثير:

- «إلا زهرة.. فقالت إن الرجل حامل مثل النساء؟!!!».

نطّ سرب صغير من الفراشات وملأت رفرفته الحيز الموتور متبوعًا برنين ضوئي أليف، أعاد للرجلين شيئًا من الهدوء، وتبعثرت الفراشات على كتفي السيد وغترته ولحيته الصغيرة.

- «وهل الرجل من مرعاكم وعشيرتكم وقريتكم؟

هل هو إصبع من أصابعكم؟».

استفسر السيد وهو يزيح فراشة زئبقية من على حاجبه، فتبادل الرجلان نظرات عاجلة، قد تكون غير مقصودة، إلا أنهما قالا سوية:

- «لا ...».

غير أن أحدهما استدرك:

- «ولكنه منذ ثلاثين سنة يعيش في قريتنا».

بينما قال الآخر:

- «إنه ليس سويًا، ولكنه غير مخبول.. أجزم أنه ليس مؤذيًا ..».

- طارت الفراشات من على جسد السيد وانتظمت في الفضاء الساطع تاركة رفرفة ورائحة نفاذة ثم اختفت بين أمواج الضوء المترادفة، وكان السيد يتبعها بنظراته الغامضة فيبدو للرجلين أن اتساع عينيه المكحولتين عميق

حقّا، وانغمرا بشعور مضطرب من أنهما أوصلا رسالة العشيرة والقرية إلي هذا الولي الصالح الذي لم يكف النظر في الموقد وكأنه يستنطق الجمر المستعر، وربما أحسا، بمرور الوقت، أن عليهما بالصمت، فقد قالا ما قد جاءا من أجله عبر رحلة نهار بارد، غير أنهما يدركان تمامًا أن السيد سيُلقي عليهما الكثير من الأسئلة وقد يخترق وصايا الشيخ حسن ببصيرته الذكية، فهو رجل ملهم أولاً وأخيرًا، وكان هذا التصور قد جعلهما قلقين إلى حد واضح، لكنهما كانا يتدرعان بقدسية المكان المنار دائمًا، وبحميمية السيد الذي وجد في الجمر المتوقد مفاتيحه السرية. هكذا كان الرجلان يفكران وهما يتابعان المتغيرات الكامنة في وجهه وحضوره إلا أن ملامح النور القدسية ظلت شاخصة في كل التبدلات التي تطرأ عليه. ودائمًا ثمة الابتسامة التي تعود على وجهه البشير، وعينيه اللتين تزدادان عمقًا وثراء وصفاء..

قال السيد وهو يخرج من عمق النار؛ فيخرج الرجلان من العمق نفسه:

- «﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾».

وضع الرجلان باطن يديهما على صدريهما وهما ينحنيان بخشوع هامسين: «صدق الله العظيم». بينما استطرد السيد بصوت رخيم تخللته عذوبة مقدسة:

- «﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحًا

وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾.

وانحني الرجلان متأثرين ومستسلمين، كأنما سيبكيان وهما يختنقان بعبرات حقيقية، ثم تساءل السيد عنبر ووجهه لا يعبر عن شيء واضح:

- «هل بقي شيء لم تقولاه؟».

انكمش الرجلان فجأة واصطدم كتفاهما وهما يسويان من عباءتيهما وغزا وجهيهما لفح حار، وكان السيد يستحوذ عليهما بابتسامته المستشرية على وجهه، فيزيد من سلامهما المهدّد لكن الرجل الشارب الكثير قال بحياد:

- «لم يبق ما هو مهم يا مولانا.. آل خيون يريدون من الله تعالى الستر..».

قال السيد بلهجة كما لو بدت آمرة أمام الرجلين:

- «حدثوني عن رجلكم هذا!.. ما الذي جاء به إلى مرعاكم؟».

نظر ذو الشارب إلى الرجل الآخر وهو يقول بتقطع:

- «اسمه غُراب.. أو هكذا يسمونه في القرية.. لا أصل ولا فصل له.. كنا نناديه غُراب فقط، لا أدري من سمّاه بهذا الاسم، لكن القرية تناديه هكذا.. غُراب.. فقط».

قال الرجل ذو الشارب:

- «تربّي بيننا دون سبب نذكره!! كان طفلاً وظل

هكذا.. لا نتذكر كيف كبر..».

فيما أكمل الرجل الآخر:

- «ليس له أحد، ليس له والد أو أم.. وجده الشيخ حسن على جرف الشط ذات فجر قديم، قبل سنوات طويلة، فآواه، ورباه، وبنى له كوخًا على الجرف، وعاش كل هذه السنوات الثلاثين.. ثم صار ما صار..».

ثم قال ذو الشارب:

- «وجده الشيخ ملفوفًا في قماط.. هو نغل يا مولانا.. أستغفر الله وأتوب إليه، كان في يومه الأول عندما عثر عليه الشيخ يوم كانت المشيخة جديدة عليه!..».

صفن السيد وزرع عينيه من جديد في حفرة الموقد المسجر وانكمش على نفسه كما لو مسه البرد. وغمر المضيف سكون ساخن، فيما كانت الفوانيس والقناديل تخفت، أو هكذا بدت في أعين الرجلين،ومع تقادم اللحظات المثقلة بالظنون، ريثما ينبجس قرار السيد أو تتواتر أسئلته، أو يكتفي بهذه الصورة المخزية التي ألمت بالقرية ورجالها عن رجل انتفخت بطنه بولادة وشيكة، خارج معرفة السحرة والعرافين وقارئات البخت، ولايزال السيد صامتًا وصافنًا على الحفرة الحمراء؛ حتى وجد الرجلان أنهما داخل صمت مشوش غير محسوب، وكان السيد كما لو أنه ينكمش كلما أطال التحديق في الحفرة الملتهبة، وكأنه ينظر إلى شيء لا يراه أحد غيره، وبقي

الرجلان ينسحبان إلى دواخلهما قلقين وصامتين كأنهما مسهما صاعق، وأحسَّا أنهما يتبعثران. وتتبعثر من رأسيهما أفكار كثيرة وهما يجيلان أنظارهما في فسحة السكون المفاجئ للسيد، وعندما نطق بشيء، لم ينتبها إليه، لعله قال شيئًا لنفسه، غير أن بعض الصمت عاد يلف المكان، ويبث فيهما خدرًا واستغراقًا لم يستطيعا الاستمرار فيه لأول وهلة. غير أن حقيقة الصمت الذي غرق فيه السيد أمام الجمر اللاصف، في هدأة الربع الأخير من الليل، جعلهما يعتكفان على صمت مضاف ارتسمت فيه أحداث بعينها أمام رجال القرية في لحظات حاسمة وقاسية جعلت الشيخ حسن في دوامة من الذهول والحرج وربما العار أيضًا، وكانت الأسئلة العسيرة تنتقل بين الرجال الذين وجدوا أن الحالة مستعصية، وأن الفضيحة ستنتقل بين قرى المعدان في كل لحظة تمرق على وجيب القلوب الهلعة وفي جو يختنق بالأنفاس المحبوسة والاحتمالات المعكوسة لحالة غريبة وشاذة عصفت برؤوس الرجال الذين ذادوا بكل ما يستطيعون لكبح الوهم أو الحقيقة، بالتسويف والإحالات القدرية وللشيطان أو الجن الذي تلبس الرجل ونفخ بطنه على هذا النحو الغريب، وفي الصمت الفائض الذي ارتآه السيد عنبر آثر الرجلان، وكأنما السيد قصد ذلك، أن يحفر في ذاكرتيهما المتعبتين، ما يمكنهما من الوقوف على أي شيء يبوحان به، في أية لحظة من لحظات

العصف الطاغي على الآخرين، وهو يرتد دائمًا بصداه المفجع، دونما حل أو جواب، إلا صوت الشيخ حسن الذي أعيتهُ الحيلة فكان يردد: هذا قضاء الله وقدره يا رجال! وكان الآخرون مثل قطع الدغل يمتصون الأوجاع ويبتلعون الأسرار والحقائق معًا، غير أن المولِّدة «زهرة» كانت على غير عادة الجميع، فهي تصرخ: سبحان الله.. سبحان الله.. ويداهمها الصوت اليائس للشيخ حسن:

- «يداك مبروكتان يا زهرة!».

- «لو كانت امرأة ما ترددت لحظة! ولكنه رجل!!».

- «قد يكون الجن دخل في بطنه؟!».

- «لا.. لا.. ما كان بودي أن أعيش حتى هذا اليوم.. راح تنقلب الدنيا يا شيخ!!».

- «سيجزيك الله ثوابًا كبيرًا..».

- «هذا ابتلاء من الله يا آل خيون.. أنتم لستم على قلب واحد..».

- «أخرجي الجن من بطنه يا عجوز!».

- «لا.. إنه مخاض يا شيخ. وأنا أعرف ذلك.. الرجل سيلد.. قبحكم الله يا آل خيون. يا أنجاس!!».

ظل الجمر يتخافت وهمهم السيد بما لا يدركه الرجلان اللذان فترا، فبان النعاس يختلج في عيونهما وبدا كل منهما أكثر تعبًا وإرهاقًا مع انصرام الوقت، واعتدال السيد وهو يلم جسده الفتي، فكان عليهما أن يتيقنا من الابتسامة العريضة التي تفتحت في وجهه

المضيء وهو يقول بصوته الذي يبعث فيهما الطمأنينة:

- «الحمد لله رب العالمين على كل حال، إنه ﴿لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾

ثم أضاف:

- «﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾».

أطرق الرجلان مصغيين، وكان النور الساطع قد أخذ يخفت حقيقة وقال السيد عنبر وعيناه تتفتحان على وسعهما:

- «تأخر الوقت عليكما، والفجر قريب، ولا شك أنتما متعبان.. في أول الصباح سننهض معًا.. أنا سآتي معكما إلى القرية لأقابل الشيخ حسن ورجال القرية، وأرى «غِراب» ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا﴾، فلا تيأسوا من رحمة الله تعالي فهي بوسع السماوات والأرض؛ لا إله إلا هو الحي القيوم، ذو الجلال والإكرام، مالك الملك، الرحمن الرحيم».

وقبل أن ينهض قال السيد:

- «هناك من سيأتي معي إلى القرية وسيجلب معه مفتاح مصيبتكم سيأتي بالقفل والمفتاح!».

لم يفهم الرجلان ماذا كان يقصد ولم يحاولا التفكير بذلك عندما انطفأت القناديل والفوانيس، وحلّت ظلمة آخر الليل.

مفاتيح السيد

تقاطر رجال قريتنا مكتنفين بالدهشة والعجب. حتى أولئك الذين اعتكفوا في صرائفهم مبتعدين عن بلوى «غُراب» جاءوا متسترين في غلالة المساء الغائم، منقادين إلى السحر المبثوث في سرائرهم وهو يقودهم هذه المرة إلى رجل الخلاص ومنبت السحر الأزلي الذي ترعرعت رؤوسهم على شذى شجرته الطيبة، تقاطر الجميع، مجموعة تتلو مجموعة، محمولين على أمل أبيض في أن القادم إليهم هو ملاك رحيم، ويد كبيرة ستمسح الجراح الكثيرة وتصنع حدّاً لمنازعتنا.

لم نصدق أول الأمر أن السيد عنبر يأتي إلينا بدمه ولحمه وشحمه وعندما هرع الرجال والنساء واصطخبت القرية بمقدمه كان علينا أن نصدق في نهاية الأمر، فها هو بقامته الفارعة وجسده الفتي ووجهه الوضّاء ينير قلوبنا السوداء، ويبعث فينا القدرة على تصور أن الدنيا ما تزال بخير، وأن الآخرين، مهما كانوا شيوخًا أم رعاة، هم صغار أولاً وأخيرًا أمام الحياة المحتدمة بكل ما

هو عـات وقـاس، ولعل رجـالنا، وهم يعـبـرون إلى ضـفـة التفاؤل التي خطا عليها السيد عنبر، كانوا أكثر إشراقًا وبهـجـة، برغم مـا ألمّ بهم من يأس وضنك وحيـرة، غيـر مـصـدقين، أول الأمـر، أن هـذا الولي الصـالح يطـأ قـريتنا بنفسه من أجل بلوى غريبة أفسدت أيامنا وزرعت الشك في نفوس أهلنا من الرجال والنساء، لكن هذا ما حدث حقّـا، هـا هو السـيـد الجليل يأتي إلينا فـي نهـاية المطاف، يترك مزاره ويقدم بنفسه قاطعًا تلك المسافات البعيدة لهـذا الأمـر الـذي تغـمـره الأسـرار بـلا شك. ومع تقـادم الظلام اكتظت دروب قـريتنا بالناس الذين انبثقوا من كل كـوخ وصـريفـة، حـتى بدا أنهم أكـثـر مـن نـخلنـا الواقف! تشـدهـم قـوة مهـيـبـة إلى رجلنا المهـيب، كـانـوا مـضـائين، بالجـمـر والمشـاعل والفـوانيس، فـتـركوا ليلهم إلـى الفـراغ وتسـابقـوا إلى قـدر جـديد جـاء به سـيـدنا العظيم إلى مـضـيف القـرية والعـشـيـرة، والذي لم يسـتـوعب حـشـود الرجال، لكن الشيخ حسن آل خيون ورجاله ظلوا يشعلون المزيد مـن اللوكسـات والفـوانيس. وحـرصـوا على إدامـة الموقد الذي يتوسط المضيف بالكثيـر من القصب والمطّال وكـان الشـيـخ آل خيون مـأخـوذًا بهـذه الخطوة التي حـملت السيد إلى قريتنا ومضيفنا وبين رجال عشيرتنا. وعندما يتفرس بزحـام الوجوه، هـاله الزحام والاكتظاظ، وهو في شـدة ارتبـاكه كان يأمـر رجالنا بأوامـر متقـاطعـة أحيـانًا، بينمـا أخذ المزيد من رجال القرى المتجاورة، وقد أنبـأتهم

ريح سماوية، بالوصول إلى المضيف حريصين على رؤية السيد وتقبيل يديه الاثنتين والتبرك بمرآه المقدس وانتظار فتواه، هذا الولي الأمين، الذي جاء بنفسه؛ عابرًا نهارًا بعيدًا، طواه، كما تطوي العين إبصارها الخاطف، وكما أكده الرجلان المبعوثان، اللذان قالا إن المشحوف كان يطير فوق الماء وفوق القصب، يسبقنا السيد بمشحوفه الآخر، ومعه امرأة مغطاة بعباءة، بدت لنا وكأنها طيف ليل حرص السيد على جلبه معه لغرض لا ندريه، كان الرجلان يقولان إن السيد كان يجذف بيديه القويتين ويحلق كما تحلق الطيور في السماء، وكان طوال الدرب الطويل، يناغي نفسه مناغاة غريبة، ومرتين سمعنا المرأة المغطاة بالعباءة تبكي وكان السيد يقول لها شيئًا فتسكت راضية، ولم نتوقف إلا مرة واحدة في إيشان «أبو جنة». صلينا فيها مع السيد المبارك صلاة بدت طويلة؛ وكانت الدموع تنساب من عينيه الواسعتين وقرأ آيات من القرآن الكريم بصوته الآسر الذي لا يُنسى، فامتلأ الإيشان بالزنابق والدفء والرائحة والطيب. وسكنت المياه، إلا من صوته الذي ملأ الآفاق بدعاء كريم، وكانت دموعه تهطل كالمطر، فأبكانا معه، وأجهشت المرأة بحرقة، وهي لما تزل في صدر المشحوف، ثم واصلنا المسير وكأننا في حلم أخضر عابرين الهور والمسافات البعيدة كما لو كنا محمولين على جناحي طائر كبير لا نراه، وقد حرص سيدنا أن نصل في أول

المساء وهذا ما حصل أمام دهشة الشيخ حسن ورجالنا الذين عصفت بهم رعدة باردة، وانتابهم فرح حقيقي وقلق بيّن وبالذات شيخنا الذي احتضن السيد وقبّل يديه وقاده إلى صدر المضيف؛ محتفيًا بهذه البركة التي شرفت القرية وأهلها متمتمًا بكل ما يحضره من كلمات تليق بولي من أولياء الله، ومثله اصطف رجالنا وقبلوا يديه وانحنوا له إجلالاً وإكرامًا، وتبركوا برؤيته، إلا النساء فقد بقين متحسرات أمام عتبات الأكواخ يقضمن الأصابع تشوقًا لمرآه المبارك وإطلالته البهية، يا سيدنا ومولانا، ولينا، وصاحب الخطوة المباركة علينا، أنقذنا من هذا الهم وخلص رجالنا من العار والخزي، واشفع لنا عند الله عز وجل، أن يقبل توبتنا ويهدي قلوبنا إلى ما فيه خير الأعمال إنه هو السميع المجيب.

احتشد المضيف بأكوام من رجالنا ورجال القرى المجاورة، وتفرق آخرون حول الخصاص من الخارج، حيث البرد والظلام الذي بقرته عيون الفوانيس وأذرع السعف اليابس، وشكلوا سورًا يعقب سورًا، متقرفصين، منصبتين إلى ما سيقوله السيد وهو يحضر البلوى ليكون شاهدًا على فجور شنيع حل بنا؛ ويكون حَكَمًا على فعل شائن حل برجل لم يكن مخبولاً ولا عاقلاً، لكنه مايزال نغلاً لا نعرف والديه ولا عشيرته، سوى أن شيخنا آواه ورباه وابتنى له كوخًا على جرف الشط، كان ذلك قبل ثلاثين سنة، يوم كان حسن آل خيون فتيًا وجديدًا على المشيخة.

رفعت المخدتان قامة السيد المهيب فأطلّ على الحاضرين بعينيه المكحولتين الواسعتين اللتين يتراقص فيهما بريق غريب من وميض اللوكسات والفوانيس، وأسبغ بنظراته وهو يجيلها بين رجالنا، جوًّا من الثقة والدفء وأحكم صمتًا مقدسًا في الصدور والأنفاس، وظل ألق حضوره يطغى على كل شيء بما في ذلك «الشيخ حسن آل خيون» الذي وجد نفسه بلا شك يتضاءل أمام السيد عنبر، غير أن الصمت لم يدم أكثر مما قدره الملاك القادم إلينا، إذ قطعه قائلاً بصوت لن ننساه ما حيينا:

- «قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾».

انحنت حشود الرجال. وطأطأت الرؤوس. ووضعت الأيدي على الصدور، واحتشدت تمتمات كثيرة، إلا أنها سرعان ما توقفت ليقول السيد بعدها:

- «يا آل خيون.. هل تقبلونني حَكَمًا؟!».

اختلطت الأصوات فجأة، وهوّمت الأيدي مباركة هذا الرأي، وفلتت من الرجال كلمات كثيرة: أنت سيدنا ومولانا، شرفت القرية ومن فيها، من لنا غيرك يا سيد عنبر، أنت الحكم والحاكم. فأشار السيد بيده شاكرًا رجالنا الموتورين، وكأنهم يجلسون على جمر كثير، بانتظار أي شيء يقوله الولي الذي عبر إلينا من أقاصي

الهور، أي شيء سيردم الفتنة التي جاء بها بطن «غْراب»، نصف الرجل، نصف العاقل. وحين استتب الصمت ثانية، هدر صوت السيد عنبر:

- «الخير فيما اختاره الله يا آل خيون، ورحمة الله بوسع الهور ومن فيه، لكن الإنسان، لكن الإنسان..».

أجال النظر من جديد في الوجوه المحنطة، وتخاطفت عينا الشيخ ملتمعتين بوهج الأضواء، متحاشيتين الإطالة في النظر إلى عيني السيد المتوقدتين دائمًا:

- «لكن الإنسان لا يشكر الله كثيرًا، لأنه أناني ومغرور منافق ونعوذ بالله من كل الصفات الذميمة، وجنبكم الله كل صفة قبيحة...».

قبعت المرأة خلف ظهر السيد متكومة تحت عباءتها وبدت كأنها صرّة صغيرة وهي تلقي في نفوسنا ظلاً من الأسرار الصعبة التي لم يشأ أحد منا أن تبقى هاجسًا ملحّا في هذه اللحظات الأخيرة التي يشغلها سيدنا ومولانا بكلامه الذي ابتدأ وهو دائم النظر في عيون رجالنا، لا تستقر عيناه على واحد بعينه، كانتا مثل خرزتين تدوران وتلاحقان العيون والوجوه والإيماءات، وكان صوته الذي لا يُنسى يحفر فينا رهبة وقدسية:

- «من كان على حق فيشلع حقه من عيوني..».

تحرك السيد قليلاً فغطى جزءً من عباءته جزءًا من الصرة المتكومة وراءه:

- «ومن كان على باطل؛ عليه أن يتدبر أمره معي هذه

الليلة، والله تعالى غفور رحيم!..».

اختلط وميض العيون في لحظات مرتبكة، ودارت الرؤوس كما لو شغلها شاغل طارئ، وربما همهم أكثر من رجل بشيء ما، وثمة من صاح: أظهر لنا الحق يا مولانا. وثمة من أغلق فمه متقصدًا وهو مرتاب بما ستؤول إليه الأمور، وظل السيد متفتح الوجه، ينعكس عليه لهب الموقد وهو يزداد حضورًا أمامنا بكل شيء، بشكل جعل قلوبنا تستسلم إليه.

- «يا آل خيون، من كان منكم على حق فليغادر المضيف! ومن كان منكم على باطل فليطلع مع الطالعين؟!» لم يكن وجهه حاسمًا في هذه اللحظة غير أننا وقعنا جميعًا في الذنب مرة واحدة! فاختلجت قلوبنا وتناوبت عيوننا في النظر إليه وإلى الشيخ المتكور على نفسه، ثم إلى الصرة المتكومة خلف ظهر السيد عنبر واللغز الكامن في ما قاله مولى قرانا، وعندما تأملنا عبر شعاع الموقد المشتعل دائمًا، لم نجد في وجهه ما هو قاس إلى الحد الذي طلب من الجميع الخروج من المضيف، من كانوا على حق ومن كانوا على باطل، وعندها تراصف رجالنا متداخلي الأكتاف، يتقاسم النور بعضهم وتتقاسم الظلمة الساقطة بعضهم الآخر إلا وجه السيد، فقد حفّ به النور من كل جانب وتعاقبت على قامته الجالسة أنوار الفوانيس المتشابكة وهي تحتشد باتجاهه..

- «من كان على حق فقد خرج. ومن كان على باطل فقد تبعه، وسبحان الله الواحد العادل.. يا آل خيون الداخل خارج حتى أدعوه والخارج داخل بإذن الله العلي القدير».

هل نهض السيد؟ أم أن قامته تسامت وتورد وجهه؟ لم يكن هناك من كان غافلاً بيننا، فالجميع مستوفزون يتربعون على جمر لا يكف عن الاشتعال لحظة واحدة. والسيد يخطو بيننا حتى أن قامته العملاقة حجبت نورًا كثيرًا، تخفّت خلفه عشرات من الوجوه، وكأنما غيمة شقت سقف المضيف وجثمت على نصف الحاضرين. ثم توقف أمام الموقد وأطال النظر في لهبه المتعالي، وقال كما لو كان في حلم:

- «لو قايضتني بأصابعي لقبلت. بل سأعطيك وجهي طعامًا وشرابًا، وأمنحك كل جسدي، لك طعامي وشرابي وثيابي وذريتي ونسائي وما أملك. أهبك سنوات عمري ما تقدم وما تأخر وما ظل مكتوبًا في لوح القدر؛ لك نصفي وكلي وكل كلي، ولكن.. عديني بقطرات من المطر، أمسح العار فيها عن وجهي وأبلّ بها ريقي، عديني إلى ذلك اليوم الذي لا أتمنى أن أراك فيه، أما الآن فانطفئي».

وبعد أن وضع السيد قدمه اليمنى في موقد النار خامرنا شعور غريب ليس بمقدورنا السيطرة عليه. كان مزيجًا من الرهبة والخوف والذهول، وقد هيمن علينا

صمت جنائزي لا يوصف، وتلاشت قلوبنا ونحن نرى قدم السيد تسحق الموقد وتفتت الجمر وتتضاءل الألسنة حتى تتوارى لحظة بعد لحظة ثم تماوج جسده خافقًا منسحبًا إلى حيث مركنه البارز والمرأة المكتومة وراءه فانسحبت الغيمة والتصقت بالسقف، وكان من السهل علينا أن نرى دمعًا يلتمع على خديه المتوردتين تحت أنوار الفوانيس الكثيرة لم تكن قطرات وحسب، إنما كانت فيضًا متلاحقًا أبكى حشدًا من رجالنا المنبهرين والمكتومي الأنفاس، والذين وجدوها فرصة لإزاحة العَبَرات المنسية في أدغال الروح والصدور، وكان ما نراه خارجًا عن قدرتنا في تصور ما يحدث، برغم أن لسيدنا حظوة في صدورنا وقلوبنا وإيمانًا قاطعًا بسلامة أفعاله المثيرة التي نسمع عنها الكثير مما تقوله قرى المعدان في كل الأهوار. وعندما انقطعت دموعه، انقطعت دموعنا، أخذت عيوننا تشخص إلى وجهه المكتنز، وحين شبك أصابع يديه وطقها مرة واحدة، قال فجأة:

– «بخ بخ عليكم يا آل خيون. ركبتم العثرات ونسيتم أنكم ريشةٌ بيّن إصبعيه!».

ثم قال وهو يمسح بللاً عالقًا على طرف لحيته الصغيرة:

– «آخ من جمرة العمر، وخاتم السنين. يا ويلتى على حياة فانية وموت محتم ونشور أكيد ..».

إلا أن البلل أخذ يزداد وظل مجرى دمعه سائبًا وقتًا

ثمينًا تقلبت فيه ألوان وجهه، وتداخلت فينا لحظات مريرة من الصمت والانتظار والمجهول، إلا أنها لحظات معبرة عن الحضور والفتنة والتجلي الحميمي لمرآى السيد وما يقوله وإذا ما حظي رجالنا في المضيف بالوقوف بين يدي السيد عنبر فإن الآخرين، خارجًا، تشكلوا كأسوار بشرية حول خصاص المضيف وتسللت عشرات النساء يحملن المشاعل والفوانيس تحت برد ثقيل وظلام دامس، ينصتن بأعصاب مشدودة إلى كلام السيد ويبعث الصبيان ليندسوا بين الرجال لرؤيته هو بلحمه ودمه، بوجهه المنير وجسده العملاق، إلا «غرّاب» فقد تخلى عنه الجميع وظل وحده في كوخه المنعزل، يقاسي الألم والوحدة والبرد والظلام والطلق! وعندما تحين فتوى السيد، لا ندري ماذا سيحصل وكيف ستكون عاقبة الأمور، فهل الرجل المهيب الذي حضر بنفسه إلى قريتنا لابد أن يقرر أي شيء، أمام المرأة المغطاة بعباءتها وهي تركن خلفه كصرة مطعوجة، فلا نعرف ما حكمة السيد بها! وهو يجلسها خلف ظهره على هذه الهيئة الغامضة التي تبعث الأسئلة تلو الأسئلة في ليلة سعيدة وعصيبة وغريبة، ولكنها لابد أن تنتهي بوصية سحرية من السيد الذي اختلفت أبصارنا في النظر إليه قائمًا أو قاعدًا أو يدور حول نفسه، أو يسأل ولا ينتظر جوابًا من أحد، وكان يطيل النظر، كما رأينا في مرات عديدة، إلى الشيخ حسن، ثم يناغي المرأة المضمومة في العباءة:

- «ما كانت الشهوة خطيئة يا ابنتي، ولكن الخطيئة شهوة دائمًا وأبدًا، الشهوة زنبور قد يلدغ حامله يا طفلتي، خرجت من السجن إلى السجن، وسيتوب الله عليك لتعودي سجينة أيضًا، لابد أن تقبلي قدرك وسيعينك الباري المعز المذل.. فالخطيئة الأكبر أن لا نثق بعدالة العادل الواحد..».

وتهاوي إلى أمامها مستديرًا إلينا بوجه غارق بالدموع، وكان رجالنا قد بلغوا قمة التأثر الحقيقي وهم يشاهدون السيد يقول كلامًا غريبًا ويبكي صامتًا، ولعلنا الآن تيقنا من أن تلك الصرة هي امرأة حقيقية تمامًا حين كلمها السيد باكيًا وهي تختض وتنشج، وبينما كان الصمت يهيمن من جديد كان النشيج المحموم لتلك المرأة وحده يتضخم، وفي الوقت الذي حاولت فيه أن تكبح نفسها عن البكاء كانت تنفجر فجأة ببكاء أكثر مرارة وحنجرة مشروخة بألم مزمن وحينما ظل السيد متمسكًا بالصمت، بدا لنا كأنه يؤذن لها بذلك وعيناه تنتقلان في وجوهنا الواجمة، ثم يطيل النظر إلى الشيخ حسن المتضائل بعينين مجمرتين، كان علينا وقتها أن نفهم شيئًا ما يوصلنا إلى ما هو غريب في هذه الليلة الباردة التي أخرجت قريتنا كلها مبتهلة بقدوم هذا الولي الزاهد الذي طرّت شهرته الآفاق وتعدته إلى الصحراء المتاخمة لنا عبر مئات الفراسخ من الماء والقصب والبردي، لكن ما كان هناك شيء في هذا اللهاث الذي خنق الصدور

وترك العيون في غشاوة من الضباب، وظلت المرأة تنشج. وكان نشيجها يتخافت ويذوب ويتحول إلى أنين وحسرات مضيئة، ثم إلى صمت مطبق قال السيد فيه:

«لا تقصوا أظافركم كثيرًا، ولا تطيلوها، وخذوا بين ذلك سبيلاً، فجلودكم يا آل خيون تحتاج إليها، وظهوركم لا تقوى على حمل أية خطيئة، وما هذه أول عين بكت ولا آخر عين، ولا تظنوا أن «غُراب» ولد مرة واحدة، بل ولد عدة مرات وسكن أرحامًا لا تُحصى، وهو دائمًا يولد في كل يوم من أيامكم الفانية، لأن الخطيئة موجودة والزنابير تلدغ حامليها، فعسى الله جل شأنه أن يتوب عليكم، وعسى الله أن يقويكم على زنابيركم حتى تتجنبوا المعصية وتنالوا رضاه..».

حتى في صمته كان حالة لا يمكن أن تنسى، كان يملؤنا بالرهبة والاطمئنان معًا، لم يتفوه أي رجل منا ولم يصدر هناك ما يشير أن أحدنا يريد أن يقول شيئًا؛ حتى الشيخ حسن المتضائل، ليس بوسعه أن يقول شيئًا أمام هذا الكلام الغريب الذي لم نعرفه من قبل، لكنه كان كلامًا خالصًا وصلت إلينا مراميه؛ برغم غُرابته، ودوّخ رجال العشيرة وأحكم عليهم سكوتًا لابد منه، وما كان السيد يعود إلى مجلسه إلا ليقف ثانية، أو هكذا أخذنا نتصور، وكان كل شيء فيه يفصح عن شيء ما لم نكن قادرين على الإمساك به ولعلنا بقينا مأخوذين بهذا الرجل المعروف وفي رؤوسنا مشكلة القرية: غُراب! الذي

أصبحنا على فضيحته وأمسينا بالشكوك والاحتمالات والقدر المخزي الذي هز القرية والعشيرة والرجال، وظل السيد يطيل التفرس في الوجوه المحنطة، فيما كانت الريح الباردة تصطدم بسقف المضيف فتترك عزيفًا كأنه أنين متصل، وظل الليل يتقادم في وقت يمر كاتمًا علينا الأنفاس، وبانت القرية كأنها داخل سرادق طويل من الصمت المحفور، وهو صمت ربما كنًا بحاجة إليه، بعد أيام العذاب الطويل بما تركه فينا (غْراب) من هواجس متقاطعة ومشاعر غمرتها الفرقة وملامح فتن كادت تأكلنا والله، لولا أن الرب من علينا برجل عظيم حفظته قلوبنا، واستسلمت لمرآه نفوسنا دائمًا وأبدًا. وقبل هذه الليلة بأزمان توارثناها جيلاً بعد جيل؛ محتفظين بحكمة السلف الصالح، ومنقادين خلف رماد الوصايا المتوالدة عن وصايا في رواق العمر العسير ومصائبه الكثيرة؛ ولولا أن السيد الفاضل كان يرغب بإطالة النظر إلينا لفعل ذلك حتى الصباح، لكنه كان منشغلاً بأمور جليلة لا شك ويستجلي من الوجوه ما يريده. وكانت شفتاه تنطقان بكلام صامت، تتوقفان لحظة منطبقتين. ثم تعاودان الكلام الصامت، ومع الوقت الذي بدا لنا طويلاً، وربما هو ثقيل أيضًا، تحرك الرجال الذين يتكومون في مدخل المضيف، انزاحوا عند الباب الخشبي ليفتحوا ممرًا صغيرًا لصوت مرتعش قادم من الظلام، وكانت «زهرة» العجوز مولدة القرية الوحيدة، هي القادمة إلى

داخل المضيف، كانت تهذي بصوت مسموع، نظرنا إليها وهي تخطو، محدبة الظهر، فاجأتها أضوية الفوانيس فغشيت عيناها الكليلتان، لكنها ظلت تتمتم: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد». فقادها أكثر من رجل إلى أي موضع كان، لكنها رفضت، وكانت تهذي بصوت عال: «لا يشرفني هذا المكان لولا مولاي وسيدي حاضر هنا.. وين السيد؟». وكانت تتعثر في الحصران المنكمشة، فنهض إليها السيد: «تعالي يا عجوز الخير»، وحين صار قريبًا منها، تكومت عليه وهي تنشج وقبلت كلتا يديه، فقبّل رأسها وهو يحتضنها؛ «تعالي يا أمي، أنت الشرف والرأس»، وكان يسحبها إلى حيث فسح لها مجالاً إلى جانبه، بجانب المرأة المغطاة كالصرّة، وكان السيد أكثر الحاضرين اهتمامًا بمولّدتنا القديمة، وربما أكثرهم اهتمامًا بها، كان يتحول من حال إلى حال، بدا أكثر ليونة وعاطفة، «اجلسي هنا» وكانت العجوز تهذي، وهي تشتم رجال المضيف، كعادتها، دائمًا، حين تدخل إلى هنا لسبب ما، وبعد أن تربعت ظلت يدها العجفاء ممسكة بيد السيد وهي تقول أدعية متلاحقة وتنظر إلى وجهه المتفتح وتصلي على الرسول الكريم بين لحظة وأخرى، وكان السيد لصيقًا بها كما لو أنه عثر على بشارة ما، احتضنها عددًا من المرات وقبَّل رأسها، وعيناه تومضان بالدموع، بدا السيد أكثر سعادة من كل هذا الوقت الذي مر، وهو يسترخي إلى جانب العجوز ويبتسم لسبابها

وهذياناتها المترادفة، وقد ذكرت الشيخ حسن آل خيون ثلاث مرات واتهمته بما لا يليق به أمام السيد ورجاله من العشيرة، غير أن الجميع يعرفون طبعها الشائخ ولسانها الباشط، وكانوا يقابلون ذلك بالضحك الذي أخرج عن صدورهم هذه اللحظات الموتورة، ولعل الشيخ حسن وحده الذي ظل مضطريًا لكلام العجوز المتغضنة، غير أنه استسلم لوطأة هذه الرغبات أولاً وأخيرًا، فيما واصلت العجوز:

- «عشنا وشفنا يا سيد.. لكن ما شفنا مثل هذه المصيبة؟».

سحب السيد نظراته منها وتوجه إلينا قائلاً، وكان يكلمها عبرنا:

- «وراح تشوفين الأمرّ يا أمي، عيشي وشوفي، الله يطول عمرك.. الملح فاسد يا عجوز الخير، والنخلة ظلت مهجورة وطلعها ذابل؛ ثلاثون سنة والطلع يأكل به الدود وبني آدم ما يروح إلا عريان، فوقه غلط وتحته غلط، ويا ويله من المعاصي والكبائر والفجور، عيشي وشوفي بعد يا زهرة؛ القبر يضم الملوك والعبيد والسادة، تراب فوق تراب، الإنسان تراب أولاً وأخيرًا، والدنيا عجينة معجونة..».

استشاطت العجوز وهي ناشجة:

- «كبرنا يا مولانا. كيف نواجه الله؛ بأي وجه يا سيد؟ وهذه الشوارب كيف تواجه الواحد الأحد..

وبطونها منتفخة بدلاً من النسوان؟! عشت سنيناً وأنا أدور في بطون النسوان.. يا زمن هذا الخلاّكم تحبلون؟ تفو..!».

وعندما بصقت زهرة في وجوه الرجال كفت الوجوه من الاسترخاء، ومسح الشيخ حسن آل خيون رذاذاً طافرًا على شاربه وهو يبتلع، كما الآخرين، هذه الإهانة الفادحة، بينما وضع السيد يده على كتفيها النحيلتين وهو يهدئ منها، إلا أنها انخرطت في البكاء. ثم خفت بكاؤها بلحظات سريعة، عندها وقف السيد بكامل طوله، وطلب من المرأة التي تختفي وراءه بعباءتها أن تقف، ففعلت دون أن تصدر صوتاً، ونهضت العجوز، وتلقائيّا نهض الشيخ حسن وهو في أقصى لحظاته وهبّ الجميع واقفين، وكان من الواضح أن الأكداس البشرية التي تسوّر المضيف من الخارج قد وقفت هي الأخرى تحت الظلام والبرد والمجهول، وفي داخل المضيف اصطدمت ظلال القامات ببعضها وتحركت حزم الضوء المنبثة من الفوانيس قلقة، فتشوش المضيف بالظلال المتقاطعة والأنوار التي لا تستقر على حال، وكانت حشود رجالنا أمام حالة مبهمة، فما قال السيد حلاّ واضحًا، ولا قال كلامًا يشير إلى انتهاء الفتنة، وعندما اعتدل وسوّى من عباءته الصوف، كانت العجوز تمسك بيده اليسرى وعيناها ترمشان بسبب الأضواء التي أنزلت من السقف واحتشدت أمام السيد الفاضل الذي كان يتعملق

أمـامنا ويـزداد بهـاء في نواظرنا، لكننت لم نكن واثقين بعد، فالسيد غـامض وصعب ومتحول، أجل، إنه متحول، ولكنه لا يتـبـدل على كل حـال! قـال أمـام الوجوه التي شكلت دوائر متداخلة حوله:

– «من الحكمـة أن يكون رأسكم حكيـمًـا؛ وإلا فـعلى الرعية السلام. تعال يا شيخ حسن؛ ورثت المشيخة وما عـدلت وإني أسـألك الآن أمـام رجـالك؛ من أين تأخـذ الحكمـة؟ من العجوز هذه؟ أم من «غُراب» ضحيتك؟ هل الحكمـة تأتي من الخطيئـة؟ أم تأتي من التبصّـر؟ فـإذا قلت لي من الأولى فأنت لا تصلح إلا أن تكون راعيًا تقود قطيـعًـا من البـقـر! وإذا قلت من الثـانيـة، فـمـا بالك في الأولى؟ إذا كنت راعيًا فإنك خرّبت المرعي؛ ثم حرثت في غيـر مـرعـاك؟! فـارتكبت الخطيـئـة، تعـال يا شيخ حسن، تقـرب مني، فـإني والله مصلح لك مـرعـاك، وآخذٌ بيـدك إلى ثمـرتـك، نخلتك المهـجـورة فـمـا جـدوى الدمـوع تسفح من زجل لحظة غـابرة.. سـنخـرج جـمـيـعًـا إلى بلواكم. ونرى، فـعـسى الله أن يلهـمنـا الحكمـة ويعـيـننا بإرجـاع الراجع إلى مرعاه!؟؟».

أخـذتنـا رجـفـة باردة. كانـت عينـا السيد وامـضـتين بما هو غـريب، وكـان الشـيخ حسن يخـرج لأول مـرة من حلقـة الرجـال منكسـرًا ومـضطـربًا، ويقـف بين يدي السـيـد مـأخـوذًا ومنصـعـقًـا، بدا أنه يلوذ بسـر لا نـدريه، وبدا أنه مـحـتـدم أكثـر مما يجب، مما زرع فـينا هواجس كـثيـرة،

وشغلنا مرأى انكساره مشغلاً فائضًا بالألم الحقيقي، برغم أننا لا ندري ما الذي كان يرمي إليه سيدنا عنبر، لكن الشيخ حسن آل خيون انهار تباعًا وتضاءل أمامنا بشكل لا مثيل له، فراعنا أن نكون غافلين ومغفلين لقضية تبدو من الخارج أن القدر سوّاها، ولكن كلام السيد وانهيار الشيخ وبكاءه المصحوب بالزفرات، قلب الصورة أمامنا وداخلنا بما كنا ننتظره من شفاء أخير في أن تعود قريتنا إلى أيامها الخضراء، وأمام الحيرة التي اكتنفت الجميع والصمت المخيّم على الحشود، كان نحيب الشيخ حسن آل خيون يؤذن بحكاية غريبة وغامضة أفرغت ما في رؤوسنا من توقعات واحتمالات كنا نرسمها حتى يحين حينُ السيد عنبر، وهكذا كان النصف الأول من الليل ينطوي وتنطوي معه حساباتنا المختلفة، ويشرع وقت بارد آخر مضاء بفوانيس أخرى ومشاعل صغيرة ولوكسات وهّاجة ودورة مجهولة يقودنا سيدنا ذو البال الطويل والصبر الطويل وهو يحفر بأصابعه في جبل جثم علينا وقتًا لا نعرف سنواته وفصوله، وعندما عاد كل شيء إلى هدوئه، وخفّ نحيب الشيخ، تطلع إلينا السيد بعينين ثاقبتين ووجه لم نقدر فصاحة ملامحه:

– «يا آل خيون، لم يبق للفجر إلا وقت قليل. وما ظل عندي شيء لأقوله. الحمد لله الذي سيؤلف بين القلوب.. الحمد لله قابل التوب وغافر الذنب ولا إله إلا

هو الجبار.. والآن يا رجال آل خيون. سيدلّنا الشيخ حسن على موضع الخطيئة الحقيقي، ونذهب معًا جميعًا، إلى كوخ «غِراب» الذي وقعت عليه الخطيئة واجتمعت في بطنه الخطايا والآثام، سنذهب الآن، ونرجو من الله العلي القدير أن يمدنا بالحكمة والعون والبصيرة..».

اختلط فينا الخوف والأمل معًا، وكانت قلوبنا تحفر فينا نبضًا متسارعًا وكان من الصعب علينا أن نفهم ما الذي يجري في حقيقة الأمر، إلاّ أن ليلنا الوشيك على الانتهاء سيدلنا على موقع الخطيئة التي آلمتنا ودقت بيننا سيفًا من العداء المستتر؛ لكن ها هو السيد يتفتح من جديد بوجه نضر يشع في أضواء الفوانيس ويتحدث إلى الشيخ حسن بكلام خفيض، ثم يعود يهمس شيئًا في أذن المرأة التي التفت بعباءتها كل الوقت، ويده تمسك بالعجوز المحدبة ثم يتحدث إلينا متبشرًا عن جنة الله الفسيحة التي عرضها السماوات والأرض، وطفق يقول أشياء أخرى غريبة، فيّضت فينا عاطفة خاصة وزرعت في الظلام البارد ثمرات من الضوء وقطوفًا دانية، ظل يتحدث عن أي شيء، الشمس التي تهبط يوم الحساب حتى حاجب العين، والكواكب الأحد عشر، وقناديل العرش الأربعة عشرة والأسماء السبعة عشرة على باب جهنم وهي تمسك زفرتها الرهيبة حتى لا يحترق ما بين السماء والأرض، تحدث لنا عن حُجب النور الثمانية

عشرة. والملائكة الذين بعدد الرمل العالج وقطر المطر وأوراق الشجر وبعدد أيام الدنيا، وقال شيئًا عن آيات النبي موسى التسع ونساء النبي داود التسعين، وعن آدم الذي ليس له عشيرة! وأرض البحر التي لم تطلع عليها شمس إلا مرة واحدة، وهي أرض البحر التي فلقها موسى بعصاه، ثم عن سدرة المنتهى في السماء السابعة التي يمشي الماشي تحت ظلها مائة عام، وعن أشجار الجنة التي لم ترها عين، وشجرة يونس التي نبتت من يقطين، وعن النحل الذي لا هو من الجن ولا هو من الملائكة، والنخلة التي لا يأكل منها إلا الصالحون وموائد الجنة التي لا تختلط ألوانها أُعِدت للصالحين، فمثلهم في الدنيا مثل الجنين في بطن أمه فإنه يتغذى من سرتها ولا يبول ولا يتغوط ولا يجوع، ثم تحدث عن أشياء لم يحبل بها رحم، وكان بذلك يشير إلى عصا موسى المصنوعة من عوسج الجنة، وكبش إبراهيم، وناقة صالح. قال أشياء كثيرة عن أقفال السماوات ومفاتيحها، والحور العين الأتراب، والقصور المشيدة، ومنازل الناس فيها، وقال ما قال عن جهنم وأبوابها وخازنيها والعذاب الذي أُعِد للكافرين والمنافقين ومرتكبي الكبائر، والجلود التي تشوى وتستبدل ثم تشوى، وذكّرنا بعذاب الله وعقابه، بحيث لجم الأفواه وحنّط الأجساد الواقفة، كان متدفقًا وكبيرًا وهو في حالة من حالات التجلي البارع والوجد الإنساني الحميم. واستضاء المضيف بنور مقدس

وهالة خضراء حفت بنا جميعًا. كان الجميع واقفين بانتظار السيد. وكان الليل يتصرم سريعًا، ثم خطا أول خطوة فانفتح أمامه ممر يقود إلى خارج المضيف، فتسارع حاملو الفوانيس واللوكسات ينيرون الظلام أمام السيد، فتصادمت الأكتاف وامتزجت الظلال وهب الآخرون ممن كانوا خارجًا طيلة الليل؛ شالوا قاماتهم المنكمشة تحت البرد، وأوقدوا المشاعل والفوانيس ورؤوس السعف اليابس. خرج السيد مصطحبًا العجوز، مولدة نساء قريتنا، ووراءه تدرج امرأة العباءة وإلى جانبها الشيخ حسن الذي كان حريصًا عليها، وكان لما يزل مرتبكًا، خجلاً، في حين أخذ بقية الرجال يطلعون من باب المضيف تحت أنوار مكتظة، كأنما ينعتقون من محبس وكانوا يشكلون طوابير وحشودًا تقف خلف الرجل العملاق الذي لاح للجميع أنه رجل منير بحق، كان يغطي جسده الفارع بعباءة زرقاء مبطنة بصوف، ويعتمر غترة زرقاء.

خرج معهم إلى الريح الباردة في موكب منار، وظلت حركة الناس تثير اللغط وتجتذب المزيد منهم حاملين اللوكسات والنيران المرتعشة، كان ليلاً مطبقًا وباردًا، ونحن نصطف على درب محفوف بالنخل، مغطى بالقش وقشور الشلب والبردي المسحوق، وهو درب يتعرج بين الأكواخ، وتبدت للسيد في موكبه الأثير وجوه كثيرة التمعت إلى جانبيه وعباءات تخفق وأقدام جاهدة تنضم

دائمًا إلى رجال القرية والعشيرة، وصلوات لنساء هجر النوم عيونهن هذه الليلة، وها هن يتبركن بمرأى سيدنا ومولانا الذي يخطو على أرض القرية بلحمه ودمه، متجهًا رلى موضع الخطيئة كما قال، إلى كوخ معزول على كتف الشط، حيث «غِّراب» المنتفخ البطن وولادته الوشيكة، وبالقدر الذي كان فيه الإيمان طاغيًا علينا بأن السيد عنبر ما جاء إلى قريتنا إلا ليفك رقابنا من بلوانا، كان يخامرنا شعور بالخجل من أن هذا الرجل الكبير قد وضعناه أمام عمل قبيح، وحاصرناه في فضيحة مستعصية، لا يريد أحد منا أن يصدقها ويتعامل معها كحقيقة وقعت بإرادة الله جلت قدرته، فحُبل رجل نصف عاقل ونصف مخبول، وهو رجل ألقت به ظروف لا نعرفها، وليدًا نغلاً ذات فجر على كتف النهر، وعاش سنواته الثلاثين معزولاً ومنعزلاً ووحيدًا في كوخ من القصب بناه الشيخ حسن آل خيون في أول مشيخته الطويلة؛ لكننا سوف نبقى خلف السيد؛ فهو مخلّص القرية الأخير؛ سنسير وراءه إلى ما يراه هو، مغمضي العيون، إلى حيث يبزغ قدر آخر أقل وطأة وأكثر وضوحًا في موقع الخطيئة الأول، أو في أي موقع تكتشفه بصيرته النافذة ورؤيته الغريبة وعدالته التي لا نشك فيها لحظة واحدة، وأمام بقية الليل أخذ الدرب يتعرج دائمًا في حدبات الأرض، صاعدًا، أو هابطًا. والقرية تشتعل بأسرجة شتى، وكان الكثير من الرجال يتناوبون في

الوصـول إلى السـيـد ذاته لتـقـبيل واحـدة من يديه، وثمـة النسـاء يدفعن بأطفـالهن وصبيـانهن ليلمسـهم السيـد وهو يسـيـر صـامتـًا ممسكًا بيـد العـجوز الحـدباء ووراءه المرأة الملفوفة بالعباءة وإلى جانبها الشيخ حسن آل خيون الذي كلمها بعضًا من المرات! ومن ورائهم رجال القرى الأخرى الذين كـانوا يتـوافـدون طوال الليل حـاملين مـعـهم أنوارًا براقـة، حـتى بات لمن يرى قـريتنا من بعد وكـأنهـا تشـتعل بنور باهـر غـمـر أرجاءها واسـتيـقظت فـهـيـا روح جـديدة واستحيا في عـروقـها الجـافـة أمل آخر يقـوده وجه وضـاء ينغـمـر بالإيمان والثـقـة والإرادة، قـائدًا جـموعنـا إلى وكـر الخطيئة والإثم ليقول لنا ما لا نعرفه حتى الآن، أو، ربما، يرينا مـا لا نتـوقـعـه، لكنه من المؤكـد أنه سـيـضـعـنـا على أعـتـاب حـيـاة جـديدة أخرى، مـا كنا قـادرين على تصـورها وإمسـاك مـلامـحـها؛ ولكن يبـقى هذا مـجـرد حـلم أو وهـم؛ فـلا يزال السـيـد يحث خطاه هـادئًا، والأضـواء تنيـر له الدرب والنخل والصـرائف والحظائر والأكـواخ، والنسـاء يتسارعن لتقبيل يديه، ويكلمنه كلامًا متمنى وكان يربت بيـده على الرؤوس والأكـتـاف، والحـشـود تتـمـاوج خلفـه مكسوة بالبرد والغبار المثار من آلاف الأقدام، وكان الموكب يتكاثر عـددًا وربما فـخرًا لسـبب لما يزل غـائمًا في صـدور الرجال، وكـان يزداد إشـعـاعـًا، حـتى لمح السيـد نفسـه أن هناك من كان يصـعـد النخل ويوقـد سـعـفه المتدلي اليابس، فتبدو الاشتعالات الطائرة كشهب ساقطة على الرؤوس.

مفاتيح الخطأ والخطيئة

سيلوح الفجر بعد وقت ليس طويلاً؛ عندما توقف السيد وتوقفت معه الحشود الزاحفة إلى مصير مجهول أمام كوخ «غِراب» فتشكلت دائرة مضاءة من المصابيح الفائضة بالنور واللهب، وخف اصطفاق الأقدام وحفيف العباءات والدشاديش، وكانت العيون تنظر إلى السيد الذي بدا أزرق تمامًا بعباءته الصوف وغترته الزرقاء فيما تعالى واضحًا أنين مسموع من داخل الكوخ الذي كان عبارة عن كدس قصب مائل ملبوخ بالطين، المتفطر، وعندما انتظم الجميع رجالاً ونساء، كان الأنين يتفاقم إلى صراخ ملتاع لرجل يعرفون مصيبته وفضيحته، فيما ظل السيد صامتًا وهو يكتسي بهيبته الطافحة، إلا أن وجهه كان يتلبد بأسى وغيظ، وكانت شفتاه تقرءان شيئًا ما، وأنصت الجميع إلى قرار اللحظة الحاسمة وهم ينغمرون بشعور مزدوج من الطمأنينة والخوف، وتحتهم تميد الأرض الثقيلة، كما لو كانت موطوءة بأكبر الذنوب؛ لكن لابد من الانتظار الأخير بعد انطواء المسافات كلها

والتي تعاقبت عبر أجيال ماتت وأجيال ولدت، ولابد من الانغماس في أسر هذه اللحظة المباركة التي يتولاها الولي الصالح وهو يصغي مثلنا إلى صراخ الرجل المحاصر بآلام الطلق والمخاض! فيما هبت ريح رخية باردة رفعت السيد قليلاً، فتطاولت قامته على قامات الجميع الذين أمسكهم سحر اللحظة القلقة، وهم يستمعون بجوارحهم إلى ما يقوله:

- «الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا الصادق الأمين وآله وصحبه الطاهرين: وإنا لله وإنا إليه راجعون، والخير في ما اختاره الله عز وجل الذي يقول للشيء كن فيكون...».

ظلت عيناه تطوفان بالفوانيس المعلقة على كرب النخل وسقوف الأشجار وتلك التي يحملها رجال ونساء وصبيان قريتنا، وظل الصراخ المتوجع وحده تتقاذفه الريح الباردة بيننا، فيزيدنا قلقًا ويشعرنا بالقرف ولا شك. وكان السيد مثلنا ينصت إلى ذلك الوجع فيتبدل وجهه، وتلتقط عيناه عيني الشيخ حسن وهو يلوذ بالمرأة المغطاة بالعباءة، شاحبًا، قلقًا، غير قادر على مواجهة السيد ورجالنا، أو هكذا كان يبدو طيلة الوقت لسبب لا نعرفه، ولا ندري ما الذي جعله يتحول من حال إلى حال، وأي كلام مما قاله السيد الذي كان يقول أشياء لا نفهم الكثير منها، والذي يعنيه ربما، لم يكن شيخنا قادرًا على أن يمسك لحظته التي لا يزال فيها شيخًا، بدا أنه تخلى

عن الكثير مما كان يحمله بين جنبيه، وظل لصيقًا بالمرأة، اللغز التي حرص السيد على إخفائها علينا حتى هذه اللحظة القريبة من الفجر، تحت سماء باردة ملبدة بالأضواء المشتعلة في كل مكان، فيما كانت العجوز تقبض على يد السيد بقوة وهي تغمغم بين الحين والآخر وتشتم رجالاً من قريتنا بأسمائهم، ولم يخلص الشيخ حسن آل خيون من لسانها عددًا من المرات، إلا أنه يتوارى عنها لائذًا بالمرأة الغريبة، يحتمي بها، وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد! وهو دائم النظر إلى السماء، وظل السيد يقول أشياء صامتة، متغير الملامح والقسمات، واقفًا بقامته التي تعلو القامات، حتى تكلم أخيرًا، بعد أن هدأ إلى حد ما صراخ «غُراب» وخفتت آلامه بين الصمت الذي عاد يجلب إلينا المشاعر المضطربة، ثم تحرك السيد خطوة أو خطوتين بمسافة قصيره فصلته عن المرأة العجوز والأخرى التي يلوذ بها الشيخ حسن، ثم قال:

- «أيها الرجال.. يا آل خيون.. من غاب منكم فقد حضر، بلغوا أنفسكم أولاً أنه ما من مصيبة تبدأ إلا وتنتهي، وكل بلوى لها عمر مهما طال. أسأل الله تعالى أن ينجينا جميعًا من المعاصي والآثام.. وبإذن الله الجبار سيعود الظفر إلى إصبعه والمشيمة إلى رحمها..».

ثم عاد التفتح إلى وجهه المنير، فارتسمت آمال جديدة ولاحت في العيون المتعبة وهي تحفر في الليل الطويل

عن أية بارقة، وهاهي البوارق تلوح في وجه السيد ذي الكرامات المعروفة، كان يتوسط حشودنا، وكانت قامته تزداد هيبة ومن حوله تتشكل هالة زرقاء، وبدأ الصراخ من جديد، كان الكوخ المائل يشي بحال من أحوال العزلة والوحدة والوحشة، فكان الصُراخ يمزقنا نحن، يحيل وجودنا إلى ذنب تشترك القرية في تسبيبه وتكريسه، ولعل السيد عنبر كان يعرف هذا وربما أكثر منه، وما أن أخذ الصراخ يتعالى وبان أن «غِّراب» في لحظات الولادة الأخيرة، حتى خطا السيد بضع خطوات باتجاه الكوخ المتداعي، ومن حوله تتعمق الهالة الزرقاء، وكنا نزداد خوفًا، وفي دواخلنا تتفاقم احتمالات سيئة تنامت فينا طيلة الليل إلى هذه الخطوات الذاهبة إلى كوخ الخطأ والخطيئة، وما كاد السيد الفارع يصل إلى الباب الخشبي المتآكل حتى كان الصراخ قد أخذ يخفت شيئًا فشيئًا ويتحول إلى أنين موصول ثم يكف كليّا فيعود الصمت يلفنا ثانية وتتوالد الهواجس، إلا أن السيد يبدو أنه حزم الأمر فدفع الباب ودخل منحنيًا. ثم أغلقه وراءه، وبشعور لا إرادي كانت أقدامنا تعترض المسافات الصغيرة وتزحف متمهلة لتقترب من الكوخ، فلعلنا نسمع ما يقوله السيد أو نرى شيئًا مما يفعله أو نرى الحقيقة الرهيبة بأعيننا في كوخ هذا النغل القديم وهو يستحوذ على أيامنا بقسوة؛ وحينما تجرأ بعض رجالنا وهم يدسون آذانهم في الخصائص المائلة للكوخ، علهم

يسمعون شيئًا أو يرون من الفجوات ما يمكن رؤيته كانوا يرجعون رؤوسهم خائفين وخائبين، كأنما الصمت المطبق الذي لفّ الكوخ وشــوش في الرؤوس المكتظة بالســوء والخير معًا، فيما انشغل كثيرون منّا بقراءة الأدعية وما يحفظون من آيات قرآنيـة، معلنين التوبة، أمام حياة لا تستحي إذا كانت على منوال ما فعله «غْراب» وكأنها، بدت الآن، مثل القشـرة المفطورة، لا تساوي شهقة أو دمعة أو حسرة، وتبقى في الصدور حدوس مختلطة، ليس لديها الرغبة في الخلاص من نفق مظلم وضُعنا فيه ببلوى «غْراب» وكأنه تمامًا استباح عذرية الجميع مرة واحدة، وألقانا في تنور تشظت نيرانه خارج حدوده تطشر دخانه على وجوهنا.

ظل الصمت يسحق انتظارنا الممل. وارتاب الرجـال لحقيقة السكون المرير الذي شمل الكوخ وغيّب السيد كل هذا الوقت، فزحف بعضهم متسترًا ببقع الظلام المتكونة من الظلال الطويلة للنخل والرجـال، وتمهل بعضــهم الآخـر، في استـجـلاء شيء من السـر الكامن من وراء الصــمت الذي يعم الكوخ، إلا أن الوقت أخـــذ يمضي قاطعًا الصبر الطويل في تباشير الغبش الذي تلوح به السمـاء، فاستدرج الرجـال بعضهم إلى بعض بالوصول إلى خصـائص الكوخ، وتحلّق خلق كـثيـر منقـادين وراء حسم طال الآن عليهم، وتناسوا انتظاراتهم الطويلة عبر الأيام والأسابيع الفـائتـة دون أمل واضح لهم، غـيـر أنهم

الآن يرتبطون بالشعرة الأخيرة وقد لا ينفع مضيّ وقت آخر في السيطرة على جموحهم النافر، ولذلك كان الشيخ حسن آل خيون يتوارى دائمًا خلف المرأة المعبّأة بالسواد، وكان يشغل نفسه، كلما مرق الوقت، بالتحدث إليها همسًا، بينما أخذت العجوز تفترش الأرض المغطاة بالقش والأتربة وهي تشعر بالإجهاد والنّعاس والذبول، وجلست إلى جانبها بعض النساء المعصّبات بالفوط في محاولة لمعرفة ما يفعله السيد داخل الكوخ وسر الصمت الذي يملأ الداخل بعد أن كان صراخًا مستمرًا وأنينًا متوجعًا لرجل على وشك الولادة أو الموت! إلا أن العجوز كانت تتثاءب وتستغفر الله وتغلق عينيها الكليلتين، وفي تقادم الوقت الحرج شمّ الرجال الذين أحاطوا بالكوخ متلصصين رائحة بخور أو نبات آخر، ثم شيئًا فشيئًا ظل ينبثق نور حليبي شفاف من داخل الكوخ المتداعي، طلع من مسامات القصب مثل حُلم أبيض، كان أول الأمر كأنه غشاوة حطت على العيون بسبب الانتظار المؤرق، غير أنه بان كحقيقة أكيدة، ورغم هذا، فإن بعضهم رآه وكأنه انعكاس لزحمة الأضواء التي أحاطت بالكوخ، إلا أن النور الحليبي أخذ يطلع من الشقوق الكثيرة وينمو مثل نبات مقدس أخذ يشكل من مخارجه المتعددة ظلالاً بيضًا ناصعة انعقدت فوق الرؤوس وتطاولت متلاحقة بحيث جعلتنا نفغر أفواهنا خائفين وقلقين، خرج كل هذا في زحمة الصمت الغامض والإبهام الذي تفتق عن نور

باهر تزايد بتوسع شقوق الخصاص، ثم أفصح عن أكداس أخرى من ضوء مماثل تعاقب وتزاحم برائحة زكية تشبه رائحة البخور أو الأضرحة ملأت الأرواح الماثلة لقدر قلق وأفحمت فيها روح اليأس المعتق من أزمات بعيدة، ونفخت في مساربها روح الأمل المرتقب عبر مفازات الليل وخطوات السيد التي ابتدأها من أول المساء وحتى هذه اللحظة القريبة من بيضة الفجر، وفي عيوننا المؤرقة كان كل شيء يتحول إلى ضوء عظيم أخذت الزرقة تحفه ببطء كما لو أن الفجر سينبثق بعد لحظات، ثم انبثق فجأة صراخ وليد جعلتنا نفتح عيوننا على وسعها غير مصدقين أن «غُراب» قد ولد فعلاً!! تناهى إلينا الصراخ الوليد واضحًا وضوح الأضواء المختلطة أمامنا، فكبّر الرجال مأخوذين بهذا الحدث الجلل وتزاحمت الأكتاف والأجساد يكتنفها الارتباك والفوضى والخوف والفرح أيضًا! وما كان أحد قادرًا على فهم ما لا يمكن أن يفهم، مع أنه صار حقيقة ستشخص أمامنا بعد قليل، وكان النور الأزرق يتقاطر هو الآخر ممتزجًا بما هو طافح من نور حليبي شفيف، كأنه أول الفجر، وكان يختلط أمام الوجوه المندهشة وهي تترقب السيد عنبر الذي انفتح أمامه باب الكوخ مصدرًا صريرًا ضعيفًا، فطلعت أولاً دفقة عجيبة من زرقة تهادت كغيمة منعتقة تتقدم السيد العظيم الذي خرج إلينا، يخطو بأرديته الزرقاء حاملاً بين يديه كتلة لحمية

مشوبة بلطخات دماء غضة، وثمة صراخ وليد متخافت بعث فينا الدهشة والرعب، لكننا لا نملك الآن إلا التصديق أمام ما نراه من أعجوبة هزت ضمائرنا وزرعت فينا الخوف قبل أي شيء آخر، ياسبحان الله! إنه وليد حقيقي، لاتزال دماء الولادة على جسده العاري. وكانت العيون تتطلع إليه لا تريد أن ترى الحقيقة المريرة أمامها بيّنة على شكل خطيئة ونتيجة لكنها لابد أن تصدق في نهاية الأمر، ولم يكن أمامنا إلا الاعتراف بكل شيء بالخطأ الجسيم والنهاية البشعة لرجل ولد فعلاً بطريقة لا نعرف كيف تمت، لكن هذا ما حدث فعلاً؛ وتزاحم الرجال ليروا الوليد المعفر بالدماء، وكان السيد محفوفًا بلون أزرق شفاف، كان من السهل أن نشم فيه عطر البخور والآس والمسك والعنبر، هكذا خليط من رائحة عجيبة طوقته وامتدت أغصانها إلينا ونحن نتبارك بمرأى كل شيء يحصل الآن، فنقترب من السيد والوليد بشكل دوائر متداخلة نلهج ونعترف بهذه المعجزة التي حلت على يد سيد مشهود له بالكرامة والكرامات والعدل والحكمة، والذي دخل الكوخ بقامته العملاقة وخرج بوليد عار لايزال دم الولادة على جسده الصغير، وخرجت قبله ومعه أكداس من الروائح والأنوار المختلطة فأنارت القرية وأخرجت فجرًا سعيدًا من حوصلة الليل، لاحت تباشيره من تحت سقوف النخل والأشجار والنور المتداخل بعد الولادة الفريدة لحياة لم تفصح عن

ملامحها كاملة سوى أن طفلاً غريبًا قد ظهر محمولاً بين يدي السيد ومحاطًا بالأنوار والروائح العبقة. وسوى أن بهجة مختلطة بغموض مجهول يجتاح رجالنا بسؤال عن مصير «غُراب» الذي أورثنا كل هذه العناءات، ثم صمت صمتًا لا نعرف ما وراءه، وعندما كان السيد يخطو بالطفل بين الجموع المتدافعة، كان الشيخ حسن آل خيون يزداد انحسارًا وانكماشًا وكان يدفع بنفسه إلى أية زاوية تقيه أنظار السيد، ولعل المرأة كانت مثله، خرجت عن انكفائها الغريب، وأخذت تتشبث بعباءتها وتدفع بالشيخ بعيدًا عنها. فيما واصل السيد خطواته الهادئة محاطًا بالأنوار الزرقاء وروائح الحقول التي تفتقت مع الفجر البازغ للحظته، وكان يرفع الوليد بين يديه أمام الحشد المهتاج، وهو يتمتم بكلام غير مفهوم وظل الوليد مستكينًا بين يديه. وعندما وقف السيد انتظم الرجال والنساء وغمرهم صمت مفاجئ بعدها قال السيد بنبرة صافية صفاء الفجر الذي حلّ:

- «الحمد لله رب العالمين الذي لا يحمد على مكروه سواه، يا آل خيون.. ما من مصيبة تبدأ إلا وتنتهي، وكل بلوى لها عمر مهما طال.. والحمد لله الذي أعاد الظفر إلى إصبعه والمشيمة إلى رحمها!!!».

اهتزت رؤوسنا.. وغمرنا صمت جليل لا نظير له.

وكان السيد ينظر إلى وجوهنا بعينين واسعتين ووجه متفتح أبدًا وهو يقول:

- «ما كانت عيونكم ترى ما أراه، ولقد رأتني امرأة ارتكبت خطيئة قبل ثلاثين سنة ماضية، ورجل ضلّ وطغى وأغمض عينيه ثلاثين سنة، وبعضكم ممن أراه عاش زمن الخطيئة فسكت مثل الشيطان الأخرس ثلاثين سنة كاملة فخرّب المرعى، ولكن.. هاهو الزمن يعود بأمر الله تعالى ثلاثين سنة ليرجع الراجع إلى مرعاه وتتطهر الأرحام من الفساد..».

وكان يبحث عن عيني الشيخ حسن فوجده لائذًا وراء المرأة المرتعشة، وأحسسناه مخذولاً وخائفًا أمام لغز أخذت مفاتيحه تتراءى أمامنا بصورة جلية، فيما كان السيد يتقدم بخطوات بطيئة والرجال يقسمون الطريق أمامه. والوليد يستكين على ساعدين حانيتين وجموع القرية تنتظر المطاف الأخير، وفجأة توقف السيد وخلّى عينيه بعيني الشيخ حسن آل خيون وكانت المرأة لصيقة به ترتعش مثل سعفة، فقال بهدوء:

- «ما عاد غُراب بينكم، لأنه لم يكن بينكم أساسًا! فتوهمتم به. وبعضكم أوهم بعضكم الآخر.. فصار الذي صار.. لقد خدعتم أنفسكم ثلاثين سنة يا آل خيون..».

طافت عليه سحابة زرقاء فاستدار إلى الآخرين، وهو يقول:

- «يا آل خيون سترون ذلك بأعينكم الآن!! أطفئوا الفوانيس والمشاعل فالفجر آت».

انطفزت الأضواء بشكل متسارع وتكسر زجاج

الفوانيس أمام فوضى الانطفاءات السريعة، وعم الظلام القرية رغم تباشير الفجر الملوّحة تحت سقوف النخيل والأشجار، وبدا أن رجالنا يغرقون في ظلام ضيق على ما ظل مجهولاً فيهم، وفي نصف استدارة استدارها مولانا السيد حتى أخذ يخطو باتجاه الكوخ المتداعي، وجلبت أنظارنا غيمة براقة زرقاء كانت تحوم حول السيد ثم أنارت جزءًا من الكوخ الذي أخذ يتصاغر وتتكمش أركانه، وفي خطوات السيد الذاهبة إليه، كان العجب يتملك حضورنا الذي بات مشوشًا، وعندما توقف توقفنا وراءه، فيما كان الكوخ عبارة عن شبح أخذ يتلاشى فعلاً كما لو كان يتبخر! وخلنا أن «غُراب» سيظهر عاريًا ووحيدًا وصارخًا، إلا أن هذا لم يحدث فقد يكون ما نراه الآن مجرد وهم أو حلم أو هو بقايا نُعاس خاثر في العيون، لم يكن ثمة شيء يوحي بوجود كوخ، كانت سدرة تتراءى أغصانها مثل أصابع طويلة، وقف السيد تحتها مظللاً بالغيمة الزرقاء التي تكاثفت واستقرت على رأسه كبقعة من السماء متوهجة، فيما عاد السيد يخطو من جديد تاركًا البقعة تنزلق على خشب السدرة باتجاه الشيخ حسن آل خيون والمرأة الملتاعة، وعندما وقف أمامهما وهو يحمل الطفل الوليد بيديه، قال للشيخ حسن شيئًا لم نسمعه، فمدّ الشيخ يدين مرتعشتين وحمل الوليد متحاشيًا النظر إلى الوجوه القريبة منه، وانسل مرتعدًا، مقرورًا، وقد تبعته المرأة

المغطاة باتجاه الظلام، وكان الفجر يطل متمهلاً كاشفًا عن ضوء سماوي حميم هو مزيج من الزرقة الشفيفة والبياض الوليد والسواد الغض، وانعقد فوق الرؤوس ولم يتقدم الفجر يطر إلينا بوجه كامل، إلا أن الغيمة الزرقاء اتسعت من جديد فكشفت أمامنا السدرة الشاخصة ثم علت وهي تحوم فوق رأس السيد عنبر فاختلطت بأرديته الشبيهة. وعلت فوق سقوف النخيل والأشجار. ولم تترك غير فراغ عطر، وكانت عيوننا ترقبها وهي تشهق عاليًا، كما لو أخذت معها شيئًا مدنسًا عاش فينا وقتًا طويلاً، فيما كانت اليقظة المباركة لفجر ندي يتفتح الآن لنغتسل فيه ونحن نرى نورًا غضًا ينبثق من وجه السيد وينتشر في الأنفاس وتسربت إلى أعمق من ذلك حافرة ينابيع من الفرح المقدس في الأعماق وهي تطوي آثامها لحظة بعد لحظة مستتجدة بماء الكوثر الرائق في مقدم الفجر المنبثق قطرة قطرة لا يتبدد رذاذه عبثًا، إلا كما أوصى به السيد عنبر في أن يكون حُلمًا لا مرئيًا مزدحم الألوان يمرق بين الأجفان خاطفًا يقظًا؛ لا تباح الآثام في مجساته الأليفة، ليترك فيضًا من الألق المنبعث من روح الفجر الأزرق ونداه النابض.. وصلوات السيد وانهمار دموعه الزرقاء طيلة ليلة باردة، ثقيلة بدت وكأنها لا تريد أن تنتهي أمام هذا الاغتسال المهيمن على أرواح الرجال الذين بدأوا الآن من ثلاثين سنة ماضية معفرة بالذنوب والخطايا، والنساء المنصتات إلى موسيقى الحياة المبثوثة

في ليلة التطهر والتكفير بأمل فذ، اتضح تمامًا أنه لن يكون كاذبًا هذه المرة بوجود السيد عنبر الذي هبطت عليه الغيمة الزرقاء مع اكتمال الفجر وحملته فوق مراوح السعف وقامات الأشجار. واتحد من أجله في تلك اللحظة المباركة هدير عارم، أخذ يشتد، كلما بعدت به الغيمة، لتستيقظ كل القرى المجاورة، وهي تلوح للرجل العظيم مغتسلة بالفجر الأزرق المبارك.

كانون الثاني/ تموز/١٩٩٧

بغداد

الفهرس

المؤلف

- وارد بدر السالم
- صدر له :

١ - ذلك البكاء الجميل	قصص		بغداد	١٩٨٣
٢ - آصابع الصفصاف	قصص		بغداد	١٩٨٧
٣ - جذوع في العراء	قصص		بغداد	١٩٨٨
٤ - بيتنا	قصص		بغداد	١٩٩١
٥- انفجار دمعة	نص	ط ١	بغداد	١٩٩٤
		ط ٢	القاهرة	١٩٩٨
٦ - المعدان	قصص		بغداد	١٩٩٥
٧ - انفجار قلب	رسائل حب		بغداد	٢٠٠٠
٨ - جنة العميان	نصوص		بغداد	٢٠٠٠
٩- فصول الحصار	قصيدة		بغداد	٢٠٠٠
١٠ - عكس المقص	قصص		دمشق	٢٠٠١
١١ - طيور الغاق	رواية		بغداد	٢٠٠١
١٢ - مولد غُراب	رواية	ط ١	بغداد	٢٠٠١
		ط ٢	القاهرة	٢٠٠٤
١٣ - شبيه الخنزير	رواية		القاهرة	٢٠٠٤

- تحت الطبع :

١ - امرأة خارج الجمال رواية

٢ - مجرد حرب ! مسرحية

من قائمة الإصدارات

- روايــة -

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	قبل وبعد	توفيق عبد الرحمن
حمدان طليقا	أحمد عمر شاهين	طقوس الزمن المحال	ثريا نافع
الهاجس	أحمد بدران	حكايات نسائية	ثريا نافع
مولانا صاحب المقام	أحمد الجندى	دنا فتدلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطانى
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ	مطربة الغروب	جمال الغيطانى
هم.. والخ	د. أحمد الدوسرى	تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوي
بيض النسا	أحمد الفيتورى	الرقص على حافة الجرح	جمال فايز
سريب	أحمد الفيتوري	المتعبون	جمعة محمد جمعة
نمولة حائرة	أحمد كفافى	إلى هذه الدرجة من الإعياء	حسنة الحوسنى
قل باب	أحمد محمد حميدة	دموع إيزيس	حسنى لبيب
عيون فاتن..خطوات عاشق	أحمد يونس	بالمقلوب	د. حمدى حمودة
وقائع غرق السفينة	إدريس على	أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
واحد ضد الجميع	إدريس على	الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
المبعدون	إدريس على	أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
طريق النسر	إدوار الخراط	يومية هروب	خيرى عبد الجواد
صخور السماء	إدوار الخراط	مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
متى تتزوجنى !؟	أشرف خليل	حرب بلاد نمنم	خيري عبد الجواد
الهيش	أشرف العوضى	حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
حذاء السيد المنسى	أشرف العوضى	الضيف	ذكرى لعيبى
عندما تبيض الديوك	أمجد صابر	الحدود	رأفت سليم
لا أحد يحبك	أمانى فهمى	الطريق والعاصفة	رأفت سليم
صيد الحضرمية	أمير تاج السر	في لهيب الشمس	رأفت سليم
همس العاشقين	أمين بكير	اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير	سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
الم يخلقها الله امرأة	أمين العزب	شجرة الخلد	سعد القرش
مأساة أسرة	أمين العزب	تائهون فى الحياة	سعدية البياتى
أشياء خاصة جدًا	أمينة العمادى	شبيه الخنزير	وارد بدر السالم
الخيول الشاردة	بهى الدين عوض	مولد غـراب	وارد بدر السالم

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية

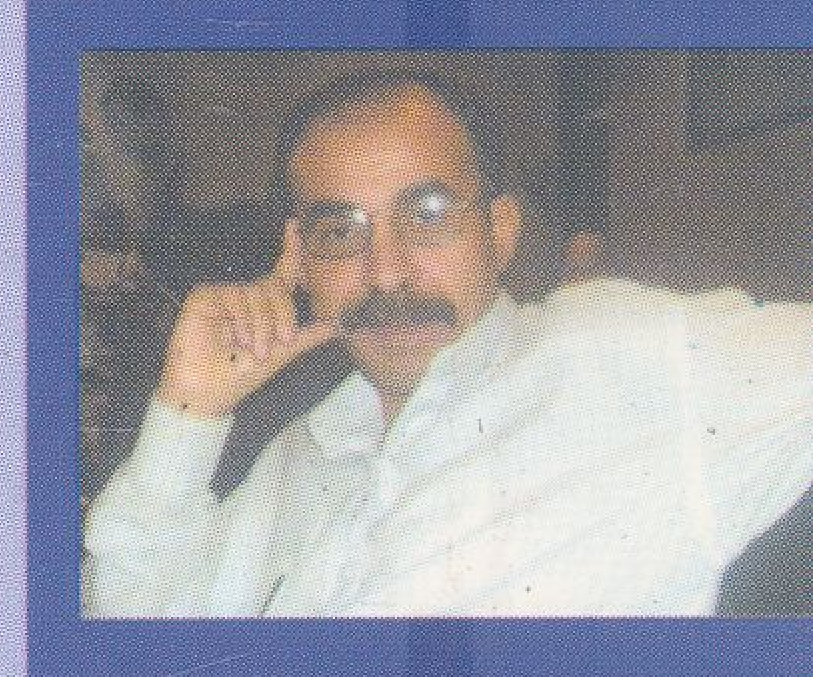
وارد بدر السالم

مولد غراب

رواية

لوحة الغلاف للفنانة/ وفاء خازندار

هذه الرواية الغرائبية التي كتبها القاص والروائي العراقي وارد بدر السالم تمثل اتجاهًا جديدًا في السرد العراقي الذي كان يتخفى وراء الرموز والأساطير والحكايات الشعبية في فترة قريبة من تاريخ العراق المعاصر، وهذه الرواية التي أحدثت جدلاً نقديًا واسع النطاق في العراق، تستقي حدثها من بيئة العراق الجنوبية، ومن عالم الأهوار الغزير بالقص الشفاهي .. والموروث الحكائي



هذه الرواية المكثفة تعمقت كثيرًا في النسيج الاجتماعي العراقي، برموزها الجديدة وهي تغت
مهمش ومنسي ومقصي، وهو الواقع ذاته
وارد بدر السالم في روايته (شبيه الخنز
مجموعته المعروفة (المعدان)



